رواية

السَدْيَة

سجون ما بعد الدكتاتور

علي عدنان

السَدْيَة

(سجون ما بعد الدكتاتور)

علي عدنان

إهداء إلى...

الخائفين، المهانين، المتألمين
في هذا العالم

الناشر: سرمارتا

لوحة الغلاف: عدي حاتم

-١-

أيلول٠٠ سبتمبر ٢٠١٥

الثانية بعد منتصف الليل.

كان يومًا يشبهُ كثيرًا باقي الأيام، أجلسُ على كرسيّ مغلف بالجلد الأسود، أتصفحُ كتابًا يتحدث عن بدايات الأنسان على ما أتذكر.

زوجتي بقربي.. تجلسُ متربعة على الأريكة، تُلاعب طفلتنا الوحيدة، التي كانت قد تجاوزت شهرها الرابع، الساعةُ كعادتها في هذا الوقت، كسولة تتحركُ ببطء، وصمت.

لكن الطرقات على باب غرفة نومنا، سرعان ما غيرت كل شيء.

كانت قوية متلاحقة، متقاربة الفواصل، مثل هزيم رعد، طق، طق، طق، لم أكد أتساءل عن الطارق، حتى أرتفع صوت قرع الباب، وتلاشت الفواصل، تحولت الدقات إلى هستيريا، طق، طق، طق، طق، طق.

أسرعتُ بالنهوض، رامياً الكتاب جانباً.. بعجل تبادلت النظرات مع زوجتي، تأمل كلٌ منا الآخر بدهشة، لم نتحدث ساعتها، تركنا نظراتنا القلقة، المتسائلة تقول كل شيء، بعد أن خيم عليها الذهول والخوف، أذ أجاب أحدنا الأخر من خلالها، عما يحدث أو سيحدث، في لحظة فقدت فيها السنتنا القدرة على النُطق.

حاولتُ لملمة شتاتي، استعادة قواي، تساءلتُ بصوتٍ مرتجف:

ممنن من؟

انتظرت الردّ، وقد تسلل الجليد إلى أطرافي، لكن دون جدوى، فتساءلت مرة أخرى وبتأكيد أكبر، من؟

- أنا!

كان الصوت القادم من خلف الباب، لرجلٍ غريب كما توقعت، لأن غرفة نومي لا يطرقها أحد، كونها تقع في الطابق العلوي للمنزل، وأبي وأمي عاجزين عن الصعود، لضعفهما وسوء حالتهما الصحية.. لكن كيف! من! وماذا يريد! تساؤلات تُطلق رغماً عني، قد أكون راسماً لها الإجابات، لكني لا أريد الاعتراف بها.

قدماي صارت مستقلة عن جسدي، تقوداننني نحو الباب، وصوتٌ أخر يهمس في أذني أن أتراجع، أُقدم رجلاً وأؤخر أختها، الثواني تمر بطيئة ثقيلة، مثلَ غصة لا أقدر على ابتلاعها، متيقناً أن ما ينتظرني خلف هذا الباب شيءٌ مخيف، شيءٌ يشبه الهلاك.

دورت مفتاح الباب، ضاغطاً بيدي على مقبضه، فأنفرج أمامي، لست متأكداً هل أنا فعلاً من فتح الباب، أم ثمة قوة أخرى فعلت ذلك.

المسدس الأسود، هو أول ما وقعت عيني عليه، كان مصوباً نحو وجهي مباشرةً، لكني لم أكترث كثيراً، رغم أنها مواجهتي الأولى مع السلاح، انتقلت عيناي بتثاقل، تخطوان لتتبع تلك اليد الممسكة بالمسدس، مروراً بالبزة العسكرية السوداء المكوية بشكلٍ جيد، وصولاً إلى وجهٍ شاب ببشرة بيضاء، وعينين خضراوين. تراجعت خطوتين إلى الوراء، لأمنح نفسي فرصة أكبر لأتفحصه من جديد، ثم نطقت:

تفضل؟ هكذا قلتها بطريقة بلهاء، محاولاً فض الصمت بيننا.

- أنت علي؟ قالها بغضب.

أومأت برأسي بالموافقة، نعم أنا علي.

- تفضل معي، أمرني وهو يحرك مسدسه.

إلى أين تريد أخذي؟

- استفسار، وسوف نعيدك.

اقتربتُ منه، بهدوء وخنوع، أعطيته يدي، فسحبني من رسغها دون انتظار، نازلاً بي الدرج بسرعة كبيرة، لا أعرف أي خضوعٍ سيطر عليّ تلك الساعة، لم أعد أرَ شيئاً، فقط أسمعُ صوت صرخات خلفي، تطلقها زوجتي، تخللتها تساؤلات.

- من أنتم؟ إلى أين تريدون أخذه؟

رد دون أن يلتفت.

- الاستخبارات.

وما أن تخطيت عتبة الباب الداخلية للمنزل، حتى تعالت صرخات مُتعبة واهنة، اختلطت مع صراخ زوجتي.. عرفتها في الحال أنها أمي، تصرخ محاولةٍ أن تخلصني، أن تعيدني لها كما كنتُ في البدء، تريد أن تذكرني أن قواها الخائرة، لن تمنحها مزيداً من الفواجع، مزيداً من الانتظار، وهي التي عاشت عمراً كاملاً، من أملٍ إلى أمل، هل ستعيش أيامها الأخيرة، وهي تنتظر أملاً آخر أسمه علي؟

دفعني صوت أمي للحديث مع أحدهم، أثناء محاولته ربط يدي.

أرجوك قل لها أن الأمر بسيط، وأنكم ستتركونني بعد قليل، أتوسل أليك أخرجني من المنزل بسرعة، أذهب بي إلى أين تريد، فقط أخرجني بسرعة، فأمي تعاني الكثير من المشاكل الصحية.. ضممت يديّ إلى بعضيهما جيداً، لأسهل عليه مهمة ربطهما، أريد أن يأخذني من هنا، صرت لا أحتمل سماع صرخات أمي، كان صوتها ينهشُ قلبي بقسوة.

- نعم، نعم. قالها بلا مبالاة، وهو منهمك في توثيق يديّ إلى الخلف.

دفعني أمامه بسرعة، ممسكاً بيديّ المربوطتين إلى الخلف، حتى اجتزنا باب المنزل الخارجية، فشد عينيّ، وقام شخصان كانا ينتظران في الخارج، بحملي ورميي في حوض السيارة الخلفي، مثل قطعة خردة.

-٢-

لا شيء سيطر علي، وانا في طريقي إلى ذلك المجهول، سوى تساؤلات وأفكار، حول ما يجري، من هؤلاء وماذا يريدون مني، أيمكن أن يكونوا مجموعة إرهابية متنكرين بزيّ الشرطة! هل فعلاً ينتمون إلى جهاز الاستخبارات كما قالوا؟ كنتُ أريد الوصول إلى ذلك اللامكان بأسرع ما يمكن، لأعرف ماذا سيحل بي، وماذا يُراد مني؟ رغم خوفي من ذلك الوصول.

بعد أقل من ساعة، أو حوالي ذلك من مسير السيارة، ببطء في البداية، سرعان ما تضاعفت سرعتها ثم توقفت فجأة، و بعد وقتٍ قليل، حملني شخصان مرة أخرى وألصقاني بجدار، تحسست الأرضية تحت قدمي العاريتين، فكانت باردة ملساء، أيقنت ساعتها إنني داخل بناية ما.. وبعد مدة ليست بالقصيرة من وقوفنا قال احدهم بطريقة حازمة:

- اجلسوا.

كنت أتوقع إنني لوحدي، لكن هذه الطريقة الآمرة بصيغة الجمع، أكدت لي أنّ هناك من هم معي، في هذا المكان.

هنا، في مكان اللاأدري، لا فرق بين الليل والنهار، أقيسُ الوقت بتلك الساعة التي أخذت بها، فتوقعت أن الصباح قد حل، بعد أن أنقضت الساعات في إغفاءات متقطعة، ومع طلوع النهار تم تحويلي إلى غرفة أخرى، قضيت فيها يومي الأول.

في تلك الغرفة الباردة، تردد علي مجموعة من الأشخاص، بفترات متباعدة، ليطرحوا علي عدة أسئلة.. عن أسمي الكامل، عملي، أشياء من هذا القبيل، احدهم جلب لي بعض الطعام، لم اكن قادراً على أكله، كنت اشكرهم واطلب شيئاً واحداً فقط، السجائر، قوبل طلبي هذا بردود أفعال

متباينة، بعضهم أكتفى بشتمي، والبعض ألآخر وجه إلى راسي لكمات قاسية، كان هناك واحداً منهم يعطيني السجائر كلما طلبت منه ذلك، لهذا حرصت على حفظ نبرة صوته، وقع أقدامه، لأطلب منه كلما جاء.. جرت الأمور على هذا الحال، لتدور الأيام بين نهارٍ وليل كما قسمتها من خلال احاديث من حولي، ممن يجيئون ويرحلون.

كنت احب الليل، حتى ذلك اليوم، الذي كان كفيلاً بتغيير رأيي في ذلك الحب، لقد كان لوطني رايٌ أخر!

جاءت صدمتي الأولى في تلك الليلة، حين سمعت منادياً ينادي باسم شقيقي، شعرت ساعتها أن تياراً كهربائياً ضرب أحشائي، سمعتُ صوته حين أجاب، ب (نعم)، إصطحبوه إلى غرفة أو هكذا خيّل إليّ، بعد سماعي صرير مفاصل الباب، وهي تفتح وتغلق، بذلت جهداً كبيراً محاولاً استراق السمع لما يجري خلف ذلك الباب، لكن بلا جدوى ذهبت كل محاولاتي، فلم افلح بسماع شيء يهدئ من روعي، لكن بعد قليل، بدأت أصوات الأنين ترتفع، وترتفع مخترقةً الأبواب والجدران الموصدة، حيثُ لم يعد بمقدورها حجبها عني، ومع مرور الدقائق، صار صوت الأنين مثل محرك سيارة، حشرت فيه قطعة من الحديد، منعته من الدوران يرتفع أكثر فاكثر، حتى انتهى بصرخة مجلجلة لأخي مردداً:

- لا لا، ماذا تريدون مني؟

الصرخاتُ، الألم، وجهلي لما يحدث جعلاني كالمجنون. فبينما كان خوفي على أخي مسيطراً علي، كان هناك الم كبير يضغط على صدري، يمنعني من التنفس، ليس بسبب الرهبة والقلق فحسب، لكنه العجز والوقوف مكتوف اليدين أمام ما يحدث.. لماذا أنا هنا، لماذا أخي هنا، ماذا سيحصل لي، وماذا يحصل لأخي، تساؤلات قلقة محيرة، حتى شعرت أن الأرض تحت أقدامي صارت تتحرك، وضربات قلبي ازدادت، محولة أنفاسي إلى لهاث.

تكرر الصوت القادم من الغرفة، أنين ينتهي بصرخات مدوية، بعدها لا لا لا سوف احكي، سوف احكي، أي شيء تريدونه مني سوف احكي، فقط اتركوني. كان صوته يشي بان ما يجري معه شيءٌ رهيب، مخيف.

بعد ساعة، أو هذا ما استطعت تقديره، ساد الصمت، صارت أنياب القلق النحاسية تنهشني اكثر، وبعد وقتٍ قليل فُتح الباب، ليخرج منه اكثر من شخص، مرُوا بجانبي، حاولت أن ارسم ملامحهم في مخيلتي، لكن لم انجح، لقد كانوا بلا ملامح، بينهم من كان يجرُ أقدامه جراً، أيقنت ساعتها أن هذه الأقدام لشقيقي. حاولت في تلك اللحظة أن استجمع قواي، لأدراكي أن ساعتي قد حانت، وللأسف فقد صدقت توقعاتي، فبعد دقائق قليلة فتح احدهم الباب، وصرخ بإسمي فأجبت:

نعم، فقال:

- هيا، انهض.

امسكني اثنين من اعلى يَديّ، المكبلتين إلى الخلف، اقتادوني قليلاً ثم وقفنا، اغلقوا الباب بعد أن اجتزنا عتبته، كان هذان الشخصان يدفعاني بقوة، لأن أقدامي كانت عاجزة عن حملي، كأنها صنعت من قطن، أوقفني احدهم بصيغة آمرة، امتثلت لها بهدوء. وبعد دقائق من تبادل الهمسات بين من كان يجرني ومن أمرني بالتوقف، سألني الأخير؟

-هل أنت علي؟

نعم، أجبته بصوتٍ مرتعش.

- نعم، تكلم يا علي.

عن ماذا، تريدني أن أتكلم؟

- أريدُ منكَ التحدث، عن العمليات الإرهابية التي قمت بها.

قالها بصوت متسلط، مثل أولئك الذين تعودوا على أن لا ترفض طلباتهم.

وبالرغم من وجعي، قاومت رغبة ملحة بالضحك، عندما سمعت ما يقول، ضحكة تجمع بين الدهشة والبلادة.

- لا داعي للأنكار، فنحن نعرفُ كل شيءً عنك، والمجموعة اعترفت بالكامل.

استمرت ابتسامتي، وقد تغيرت أسبابها، من الذهول إلى الازدراء، حين رأيت المحقق يتحدث بطريقة تدعو للغثيان، استعدت توازني متسائلاً باستهزاء: وماذا قال عني الجماعة؟

- قالوا: انك تساعدهم، في تنفيذ أعمالهم الإرهابية.

كلامُك غريب يا أستاذ، أنه محض خيال!! ما أن تمتمت بهذه الكلمات، حتى جاءتني اللطمة الأولى على وجهي، لم اشعر بألمها ألا أن نوراً توهج في عيني وأنطفئ.. حرارة وجهي ازدادت والأمواج تردد صداها في أذني.

بعد اللطمة، تكلم المحقق بنبرة جافة قائلاً:

- لدينا كافة الوسائل الكفيلة، بجعل الخيال حقيقة!

كلماته أطبقت على صدري، وزادت من ارتجاج قلبي، سألته:

ماذا تريدون مني، أن أقول؟

- أعترف بانك إرهابي!

لكن هذا حقير. هكذا أجبته.

- ما هو الحقير؟ قالها بصوتٍ ممتعض.

ران الصمتُ قليلاً، وأخذت افكر، هل هؤلاء فعلاً استخبارات. أم أنها احدى ألاعيب التنظيمات الإرهابية، التي كثيراً ما سمعتُ عنها، فقلت له:

التهمة، اقصد التهمة حقيرة.

- أعلم ذلك، أجابني.

وهل تعلم ماهي توجهاتي؟

- نعم وصلتني تواً معلومات عنكم، يسمونكم يساريين أو شيوعيين، لكن هذا لا يعني شيئاً عندي، أريدك أن تقول.

مستحيل أن أقول ذلك، حتى لو قمتم بتقطيعي، قلتها بتحدي.

- من المؤسف انك ستتكلم، قالها باسترخاء مستفز، وأضاف هل سمعت باختراع اسمه السدية؟

اذا كنت تقصد النقالة المستخدمة في نقل المصابين والمرضى، نعم اعرفها.

- بالضبط هذا صحيح، لكننا وسعنا استخدامها بعض الشيء، واذا لم تتكلم، سنريك الاستعمال الآخر لها.

لم، ولن انطق حرفًا واحداً من ما تريدون، قلتها بطريقة اعتقد أنها أزعجته.

فراح يزعق.

- اربطوا هذه الكلب على السدية فوراً.

أطلق أوامره بصرخة مدوية، فقام شخصان على الفور بتوسيدي على السدية، بعدها لفوني ببطانية صوفية سميكة، ومن ثم لفوا حبلاً من رقبتي حتى اخمص قدميّ، وما هي ألا دقائق حتى صرت داخل (قماط)، مثل طفلٍ في أيامه الأولى. ولكي يُزيد من وجعي، وضع أحدهم قدمهُ على اعلى بطني، ضاغطاً بقوة، وفي ذات الوقت كان مستمراً بشد الحبل اكثر، حتى بدأتُ أواجه صعوبة في التنفس، وهنا قال كبيرهم:

- والأن؟

لماذا تفعلون بيّ هذا؟ أجبته بصوتٍ غاضب.

- لكي تتكلم، وبعد ذلك سنقوم بمعاملتك بمنتهى الاحترام.

اتركوني، صرخت.

- وتحكي؟

لن أحكي أبداً، قلتها بإصرار.

وما إن قلت لهُ ذلك، حتى أعطى إشارته، ليقوم الاثنان الآخران بالضغط بأقدامهم، على منطقتي الصدر والبطن، مع شد الحبل أكثر. كنت أعاني من حساسية صدرية منذ الولادة، وهذا ما زاد الأمر سوءًا، صرت أختنق، ودخلت في صراع محموم من أجل الحصول على القليل من الأوكسجين، لكن دون جدوى. بغته وانا على هذا الحال قام الشخص القاعد على صدري بوضع كيس، غطى به كامل وجهي، وبدأ ب "الكبس" كما يسموه، وهو: أن يضغط الكيس بقوة، على وجهي، ليمنع أي جزئية من الأوكسجين عني. هنا بدأت الرفس الموضعي، لكن دونما فائدة، لأن الشخص الجاثم فوقي كان ضخم الجثة، مما تعذر علي الفكاك منه، ومع مرور الوقت، واستمرار الحال على ما هو عليه، اخذ جسدي بالتصلب، كأني سمكة أخرجت من مائها،

وبالرغم من إن عيوني كانتا معصوبتين بأحكام، إلا أني شعرتُ بالظلام يتضاعف، لوهلة اعتقدت بأني لن أرى النور مجدداً، حتى بدأت بفقدان الوعي، إلا إني اكتشفت، وأنا على هذا الحال، إن ألألم قادرً على تأجيل كل شيء حتى الغيبوبة، التي ستريحني إذا ما حدثت، إلا أن الألم أراد أن يأخذ مني مأخذه، واستمر الاختناق، حتى صارت عملية العبور للعام الآخر قريبة، لا محال، إلا إن الضربات على قدمي أعادتني إلى الحياة. اذكر إني صرخت بجنون، كطفلٍ ولد ميتاً، ونجح الأطباء بإعادته إلى الحياة.

تركوني قليلا؛ لأستعيد رشدي، ورغم هول ما حصل، لكن خوفي بدأ يتبدد، شعرت بالطمأنينة، لأني بدأت أتأكد أن هذه الجهة ليست داعش!

كنت منشغلا بألمي، حين أعاد علي احدهم ذات السؤال:

- هل ستقول، بأنك إرهابي أم لا؟

لا طبعا، لن أقوال.

أجبته بتأكيد أكبر، لينزل الكيس على وجهي مجدداً، كان الألم مرعباً تلك الساعة، وصارت أجمل أمنية ممكن أن تتحقق لي هي الموت، لكن الموت في تلك اللحظات، لم يكن ألا ترفاً بعيد المنال.

قال لي خانقي وهو يقوم بعمله على أفضل وجه، حتى أن قطرات العرق بفعل الغضب، بدأت تنزل من وجهه على وجهي، بحجم حبات البرغل:

- أسمع يا كلب، حين تريد أن تعترف قُم بهز راسك، وسوف أتوقف عن خنقك!

عادت التشنجات لتجتاح كامل جسدي، تصاعد الألم الذي أعجز عن وصفه، فقمت بتحريك رأسي، كإشارة للموافقة على ما أرادوه، وما إن رفع الكيس، أطلقت صرخة غريبة، وكأن فمي لم يكن وحده يصرخ ، بل كنت اشعر، أن الصراخ يخرج من كل مسامة في جسدي.. بدأت بسحب الأوكسجين، بشكل مجنون، كأني أحاول تخزينه في الداخل؛ لأستعد لحملة أخرى من الاختناقات. حاولت ابتلاع ريقي، لكن دون أن أجد ما يبلع، كان حلقي جافاً جداً كأني مضغتُ رملاً حاراً.

رحت أتكلم معهم بعقلانية، بشفتين مخدرتين، علني أستدر عطفهم، أو أعيدهم إلى رشدهم، فقلت:

أرجوكم افهموا، إن توجهاتي الفكرية هي نقيض هؤلاء، وأن داعش لو أمسكوا بي لقاموا بقتلي على أقل تقدير، لأنني بكل بساطة يساري، وانتم تعلمون ذلك جيداً.

- ما الفائدة من هذا الكلام؟ قاطعني أحدهم. وراح يردد كلامي بسخرية، بتهكم، كان يُخرج الكلمات من أنفه، وأضاف: أننا لا نريد أن نسمع منك ألا كلمة واحدة، وهي "إرهابي"، افهم يا حيوان.

لم أفلح في مسعاي، فقد كانت مشاعرهم حجرية عصية على أللين.

عدتُ إلى موقفي السابق. أنا لست إرهابياً، قلتها بصوتٍ منخفض، بهمس.

- أذاً، إنك تحاول اللعب معنا، وسنريك معنى ذلك.

أعادوا الكيس إلى وجهي، مرة وثانية، وثالثة وأنا أصرخ، واصرخ بألم يائس، أغيب عن الوعي فيعيدوه إلي، بالعصى الكهربائية مرة، أو بواسطة "صوندة البي بي آر" مرة أخرى، وبعد ساعات من الخنق وإعادة الوعي، وفقدانه، بدأت مقاومتي بالانهيار، وصرت أتوسل بهم، أتضرع لهم، عَلي أثير شفقتهم واستدر عطفهم قائلا:

أتوسل لكم، أقبل أياديكم، لا تخنقوني.

- لن نخنقك، اذا ما تحدثت، هيا تكلم.

صمتُ قليلاً؛ افكر في ما يراد مني، عار علي أن أقولها، رددتها مع نفسي أكثر من مرة، كيف أقول إنني أنتمي إلى سفاكي الدم هؤلاء؟ يستحيل ذلك، وأنا أصارع هذه الأفكار. صاح احدهم:

- اخنقوه.

صرخت؛ عند سماعي هذه الكلمة بصوتٍ مهزوم.

لا، لا، لا، إرهابي، أنا إرهابي، قلتها وانا احرك راسي يميناً ويساراً، وهو الجزء الوحيد الذي يمكن تحريكه، بجسدي المسجى على السدية.

- أحسنت. قال المحقق، وأمرهم بفتحي.

فوراً بدأوا بتحريري من الحبل، و إزاحة البطانية عني، ليتعاون أثنان على إمساكي من الإبطين وإخراجي من السدية.

ماء، فقط أريد ماء، صرتُ أردد بأنفاس مبهورة.

أعَطوني بعض الماء بسكبه على وجهي، جُزءاً قليلاً مِنهُ دخل جوفي، وهذا القيل كان كفيلاً بإعادة الحياة إلى جسدي المتهالك.

- أجلس، قال المحقق.

أجلسني أحدهم على كرسي قريباً منه، وفور جلوسي، أشعل سيجارة وقدمها لي، وضعها بين أصابعي.. التقطتها بيدي المرتعشة، بعد أن أعادوا ربطها إلى الأمام، دخنتها بشراهة.

- جيد يا علي، اتفقنا.. لكن اعلم أن الأمر متروكٌ لك، بيدك تكسب احترامنا، وبيدك تهين نفسك، لذا كن مطيعاً ونفذ ما يراد منك، وستجد منا كل الاحترام والتقدير.. والأن قل لي كيف تصنعون العبوات الناسفة؟

صَمتُ قليلاً، بدأ احدهم يحرك الكيس قرب أذني، خرخشة.

- ها هل سيطول، صمتُك؟

من البارود سيدي، نصنعها من البارود، قلتها بحماس مثل طالب مُثَابِر.

أنفجر الجميع بالضحك، حتى أن أحدهم صار يسعل من شدة القهقهة، وأخر قال مستهزئاً، ما هذه المعلومة الثمينة.

شعرت ساعتها وكأني تُركتُ، لأتدحرج من أعلى قمة جبلٍ شاهق، وفي هذه اللحظة وأنا على هذه الحال، أنارت فكرة في بالي، فقلت بصوتٍ عالٍ من مواد كيميائية سيدي، هدأوا وأبعد الكيس عني.

- اسمع، حين تقول ما نريده منك، سنعاملك حينها كما تحب.

أجبته محركاً راسي بالموافقة، فقط لا تعذبوني، وسوف أكون كما تريدون "أجبته بإمتنان".

، فأردف الضابط قائلاً:

- والأهم أن تردد دائما اعترافك، لكي لا تنسى، أو تتراجع، ففي حال نسيت أو تلكأت، سنعيدُ عليك التحقيق من البداية، ولا أظنك راغبٌ في ذلك.

مجدداً هززتُ رأسي، فقط أرُيد وعداً، أنكم لن تربطوني إلى السدية.

- نعم، لك ما تريد.

ترك المحقق مكانه ذاهباً، إلا أنه قال كلمة لم أفهمها، ألا بعد قليل، "علقوه"، ليمسك بي اثنان من يدي المكبلتين، بعد أن أعادا ضبطها إلى الخلف، قاداني مسافة عشرين خطوة تقريباً، ثم أوقفاني بجوار عتلة، يصدر منها، صوتُ صلصلة سلاسل، كنت قد حفظتها في مخيلتي، كانت تشبه تلك المستخدمة في ورش إصلاح السيارات، و في نهاية السلسلة الهابطة من العتلة هناك خطاف، قاموا بوضعه بين الأصفاد المطوقة ليديّ، وما هي ألا دقائق حتى بدأت يدي بالارتفاع، لم افهم تحديداً ما كانوا يريدون فعله، حتى بدأ الألم يتسرب إلى كامل يدي، مستقراً في منطقة الكتف، كانوا كلما سحبوا السلاسل أكثر كلما اشتد الألم أكثر، حتى أصبحت يديّ فوق رأسي مباشرة، وهنا صار الألم لا يطاق، تعالت صرخاتي، توسلاتي، كنت أعرف أن لا جدوى من التوسل لكني كنتُ أواصل التوسل، عندما راحت تفارق أقدامي الأرض، و صارت أصابع قدمي بالكاد تلامس البلاط، أزداد صراخي، لكن فجأة أخذ الألم بالزوال، فقدت الإحساس تدريجياً بكل شيء. كُنت كمن يحاول أن يسلم نفسه للنوم؛ هروباً مما هو فيه، بدأ الصمت والظلام يتكاثفان، الخدر يزحف من أطراف جسدي نجو المركز، لحظتها احتضنني أحدهم، وسحبني إلى الأسفل لأغيب عن كل شيء.

بعد مرور وقت، لا اعلم مقداره، استعدت الوعي على وقع من الرفسات والماء المثلج، الذي نزل على رأسي كأنه مجموعة سياط هبطت مرة واحدة.. صار الصراخ يخرج من فمي همساً، بعد أن فقدت قدرتي على رفض الألم. استمروا بسكب الماء مرات متكررة، حتى أطلق المسجد تكبيرات الآذان، معلنا عن صلاة الفجر، كما سمعت أحدهم ينادي، داعياً إياهم للصلاة.

لم أكن أعرف ما اذا كنت نائماً، أو مغمى علي، حتى الصباح حيث تم تحويلي إلى مكان آخر، في هذا المكان أُمرتُ بالبقاء واقفاً على قدمٍ واحدة، لم يكن وضعي يسمح بالاستمرار على هذا الحال، خصوصاً بعد ما جرى تلك الليلة، المنهكة للقوى، والمحطمة للجسد، حتى صرت أترنح

في وقفتي، مثل نبتة عباد هزيلة تقاوم الريح. أُحاول إصاخة السمع، وعندما أدرك أن لا حركة قربي أستغل الفرصة، لأريح قدمي بإنزالها إلى الأرض، لأعاود رفعها ما إن يمر احدهم.

بعضهم يشتمني عندما يرى قدمي على الأرض، وهناك من يكتفي بضربة واحدة على رأسي أو رقبتي كلما مر بجانبي، صار رأسي يترنح مع كل صفعة، أحدهم لم يكن يتوقف قبل أن يوجه لي سيل من اللكمات، صرتُ أتوقع الضربة ما إن يمر احدهم.. أجفل مثل ذيل عصفور خائف، كلما أقترب أحدهم مني، كان توقع الضربة أكثر ألماً منها.

أصبحت أميزهم، من وقع أقدامهم، وآخرين من رائحتهم، وهي تحمل معها كل مشاعر الخوف والرهبة، ولأول مرة أعرفُ إن للخوف رائحة، وبعض الأصوات كانت تعلن لي عن لكمة جديدة.

رحتُ أفكر، في حياتي، كم كنتُ متذمراً قبل هذه اللحظة، الأن أصبحت أكبر أحلامي هي العودة ساعات إلى الوراء، هل سأرى أمي مجدداً، أبنتي، أشقائي، أصدقائي لا أعلم لا أعلم.

الخطوات، الهمسات، المكان، الرائحة، كل شيء يشي بالرعب، ويعلن عنه، وكل شيء يحمل معه منظراً مخيفاً جديداً. لم أعد اهتم للضرب والسباب، لقد اكتسبت مناعة ذاتية ضد الإهانات، وجسدي تعود الأذى حتى أمسيتُ مثل بغلٍ عنيد.

بهذا الشكل، استمر حالي حتى المساء، كان صوت المؤذن، المعلن عن الصلوات هو ساعتي، اعرفُ من خلالها الوقت.. في المساء أمرنا أحدهم بالجلوس، استعداداً لتناول الطعام، الذي لم أذقه منذ الأمس، جلسنا كما طُلب منا، قام الحارس بفتح الأغلال من يديّ، المربوطة خلف ظهري، طالباً مني مدها إلى الأمام، ليعيد ربطها، مما أتاح لي مسك الملعقة، وما أن وضع الطعام أمامي، حتى رفع قطعة القماش من عيني، لأتمكن من رؤية الطعام.

لم يقع بصري تلك اللحظة على الأكل، بل على أخي، كانت المرة الأولى التي أراه فيها منذ اعتقالنا.. تصلبت ملامحي، شعرت أن اللون سُحب من وجهي، تطلعت أليه دون كلام، أحسستُ بمرارة تدمي قلبي، فرغم إني تعرضتُ لذات التعذيب والإيلام، إلا إن ذلك أوجعني، أرى شقيقي يعذب أمامي؛ دون أن أفعل شيء.

حاولت أمساك الملعقة بإحدى يدي لأتناول الطعام، لكن بسبب ارتعاشها لم أفلح، فتحت قبضتي وأغلقتها، مرتين، ثلاثة محاولاً أعادتها إلى الحياة لكن بلا فائدة، ما اضطرني لأستخدم كلتا يدّي، لم أتمكن من تناول أكثر من لقمة واحدة، لأني كرهت ذلك الطعام، المنغمس بنكهة الإذلال، وطعم الخوف.

بعد الانتهاء، أعادوا ربط عيني بقطعة القماش، ومع انتهاء المساء، وانا اقف مستنداً على الحائط في المكان نفسه، جاء أحدهم، مستفسراً ممن كان بجواري من الحراس؟ قائلا:

- هل نبدأ الحفلة الآن؟

- كلا، ليس الآن، أجاب آخر وأضاف: لا يزال الوقت مبكرًا، ليلاً سيكون أفضل.

وفعلاً هذا ما حصل، فبعد أن أرخى الليل كامل سدوله، أخذونا إلى غرفة شديدة البرد، لم يكن يسمعُ فيها سوى صوت مكيف الهواء، الذي يبدو من برودة المكان، إنه رفع إلى اقصى درجة، حتى تحولت الغرفة إلى أشبه بثلاجة لحفظ الموتى.. كل هذا أكد لي، إن حفلة التعذيب سوف تبدأ في أيّة لحظة، فقررت متحدياً ذاتي بأن أقاوم هذه المرة، حيث رددت بعض الكلمات، ألتي من شأنها أن تعيد لي روح التحدي، فرحتُ أكررُ في داخلي: "لن أنهار، سوف أقاومهم، سأنطق بالحقيقة، بالحقيقة فقط".

بينما كنت مستغرقاً في هذا الصراع، أمسكني شخصان وقاموا بتوسيدي على السدية، ولَفي بالغطاء الصوفي ذاته، والحبل ذاته، ومع سماعي طقطقة الكيس تقترب من وجهي، تهاوت جميع دفاعاتي، وقبل أن انطق

ببنت شفة، أطبق الكيس على كامل وجهي، بدأت ارفس، مُخرجاً لساني لعلي أنجح بإحداث ثقبٍ في الكيس، لكنه كان سميكاً، عبثاً ذهبت كل محاولاتي، تمنيت أن أتحول إلى جثة هامدة، لأتخلص من هذا العذاب.. وبعد لحظات، خيم علي الهدوء، رفع الشخص الذي كان يخنقني الكيس، بحركة مدروسة على ما اعتقد، لأنه دائماً ما كان يتوقف في اللحظة الأخيرة، ومع دخول الأوكسجين، إلى انفي وفمي، بدأت بأطلاق صرخات غريبة، حتى شعرت معها أن حنجرتي قد تفتقت، كان سحب الهواء بقوة مؤلماً جداً، كأنه أشواكٌ من ثلج. تكرر المشهد ست أو سبع مرات، إلى أن استسلمت تماماً، وهنا قلت لهم بصوتٍ ذليل:

ألم نتفق أني إرهابي؟

- نعم، قال أحدهم.

فلماذا تقوم بخنقي؟

- لكي تقتنع أكثر.

وما الفائدة؟

- ستعرف، غداً، أو بعده.

تَقصدتُ خلق هذا الحوار، لأمنح نفسي المزيد من الهواء. بعدها، أمر الحراس بإخراجي من السدية، وإكمال السهرة معي.

أجلسوني على الحائط، فارداً ساقي، خائر القوى، كأنني امرأة تعاني من عسر الولادة منذ يومين.

بدأ البرد يهاجمني، ينهشني كقطيعٍ من الضواري، جسدي يهتز، أسناني تصطك، كل شيء فيَ يرتعش، هلْ بسبب الرعب أم البرد، لا أعرف وما زاد الطين بلة، سكبُ أحدهم ماءً شديد البرودة، نزل على رأسي وجسدي كأنه وحشٌ من جليد يعضني. وبدلاً من أن اصرخ، صرت أطلق آهات أنين لا أكثر، لأني لم أعد قادراً على دفع صوتي إلى الخارج، شعرت

بتراخٍ أصاب حبالي الصوتية.. استمر الحال لساعات، يسكب الماء المثلج على رأسي وجسدي، ليرتفع أنيني مع كل سكبة وينخفض.

- أرجوك لا تتألم، أنا أعرف كل شيء، لكن هذا عملي، أرجوك، لأنك تؤلمني!

هذه الجملة الهامسة، حين نطق بها معذبي داهمت مسمعي، أفرحتني، ونفذت سريعاً إلى روحي المهشمة، كانت كفيلة بأن تحييني وسط وجعي، كانت كالمنقذ، أو ألمواسي، مثل نار دافئة، جاءت لتخفف عني جبل الجليد الذي حُبست فيه.

هو كذلك، كان لا يستطيع قول الحقيقة، لأن تهمته ستكون جاهزة "التعاطف مع الإرهابيين"، تهمةٌ كفيلة بإنهاء مستقبلك الوظيفي. تحملت الألم؛ بعد أن سمعتُ هذه الكلمات، لا اعرف ما السبب وراء ذلك؟ هل أحاول رد الجميل لما قاله الحارس من كلمات اشتاقت نفسي لسماعها؛ لذلك قررت التحمل، لكي لا أؤلمه هو أيضاً.. حاولت اللجوء للبكاء، لكن بلا طائل فحالتي كانت أكبر من أن أتجاوزها بالدموع.

مع ساعات الفجر الأولى، تركوني ورحلوا، كما فعلوا في المرة السابقة، فاستسلمت، لجسدي المتهالك ببعض الإغفاءات، بعد أن كورت نفسي مثل كلب، لأشعر بالدفء قليلاً، كانت أشبه بإغفاءات طائر ساعة الرواح. وفي الصباح ربت احدهم، على كتفي قائلاً:

- ساعدني لإنهاضك.

بعد أن امسكني من ذراعي، ضغطتُ بقدمي على الأرض، مستخدماً ما تبقى لدي من قوة حتى نجحت بالوقوف، بدأ بالتحرك وأنا معه بكامل استسلامي، كأنني خرقة بالية تعبثُ بها الريح، سرنا سوياً، مسافة عشر خطوات تقريباً، توقف ليفتح باباً، ويدخلني من خلاله طالباً مني الوقوف، وعندما رفع قطعة القماش من عيني، وجدت حائطاً أمامي، خلص بعدها يدي من الأصفاد، مطالبًا إياي عدم التحرك، إلا حين يأمرني بذلك، فبقيت صامتاً حتى حررني بالكامل من قيودي، ثم خرج قائلا:

- بإمكانك أن تقضي حاجتك.

تحركت بخطى متثاقلة، بالكاد أتممت حاجتي، وغسلت يدي ثم وجهي، كانت هذه المرة الأولى منذ مجيئي قبل أربعة أيام.

أستاذ: لقد انتهيت.

- عُد إلى نفس المكان، ووجهك إلى الحائط، ولا تتحرك أبداً.

فعلتُ مثل ما طلب مني، وقد بدى انهم حريصون، على أن لا يرى أحدٌ وجوههم، دفع الباب المغلق قليلاً، وأعاد عصب عيني باللفافة التي بقيت معه، بعدها قيد يدي بشكل محكم، ليعود بي إلى نفس المكان، وقبل أن يتركني قال لي بصوت مسموع:

- اسمي سالم، وأي وقت، تحتاج إلى شيء، قل أريد سالم.

شكرته كثيراً؛ لما فعل من أجلي، وهو أمر لم أعتده في هذا المكان، وقبل أن يغادر قلت له مستغلاً كرمه:

أريد سيجارة.

- لكنك لم تتناول شيء، منذ البارحة؟

أرجوك.

- حسناً، حسناً.

فك وثاقي، واضعاً في يدي قطعة خبز محشوة بالجبن، تناولتها بعجل، فأعطاني كوباً من الشاي، شربته بسرعة على دفعتين، أحاول اختصار الوقت للوصول إلى السيجارة، وفعلاً أعطاني بعدها السيجارة، دخنتها متلذذاً بها بعد فراق.. راحت الكثير من الأسئلة تتقافز في ذهني، بعد أن منحتني السيجارة فسحة من الهدوء:

من سالم هذا؟ لماذا يقدم لي كل هذا المعروف؟ هل تراه يعرف إني برئ؟ أم إنهم عرفوا، إني لم افعل شيء؟ ويريدون التكفير عن ما فعلوا. أتعبتني الأسئلة حتى غفوت، عاد سالم بعد وقتٍ قصير، ليوقظني ويضع

في يدي قنينة ماء، انه على علم بعطشي الشديد، وما إن انتهيت من شرب الماء، حتى جاء بكوب شاي آخر، واشعل لي سيجارة أخرى، فدار بيننا حديث ليس ذو قيمة تذكر، طلبتُ منهُ بعد ذلك اخذي إلى الحمام للتبول، نفذ رغبتي دون امتعاض، وما إن أحسست إننا أصبحنا لوحدنا حتى سألته، عن سبب ما يقوم به من اجلي، وقلت:

هل تعلم يا أستاذ سالم، إني لم أقم في حياتي بقتل دجاجة؟

- نعم، أعلم طبعاً.

وكيف تعلم هذا؟

بصوت أقرب إلى الوشوشة قال:

- إنني على تواصل مع أسرتك، وأعلم بكل شيء، وإذا أردت أن استمر بمساعدتك ألتزم الصمت، واتبع نصائحي.

تملكتني السعادة، وأنا أصغي إلى حديث سالم، شاعراً بقلبي ينبض أملاً من جديد، أتممت حاجتي وعدت إلى مكاني المعتاد، والطمأنينة والهدوء يغمراني.. في المساء، جاءني سالم، حاملاً معه صحناً من الأرز الأبيض مغطى بالمرق الأحمر، وضعه أمامي وهو يقول:

- سوف أذهب الأن، وأعود ليلاً هل تحتاج إلى شيء؟

قمت بهز رأسي بلى، فقال:

- سيجارة، طبعا.

ابتسمتُ، ناولني سيجارة ورحل، بعد قرابة الساعة أو أكثر، جاء احدهم منادياً باسمي،

أجبت نعم.

- تعال معي

نهضت بمساعدته، متحركاً معه إلى غرفة، أعتقد أنها كانت مجاورة لمكان جلوسي، لأني لم أمشِ أكثر من ست إلى سبع خطوات، أجلسني على كرسي مريح، وبعدها بلحظات جاءني صوت متسائل من الجهة المقابلة:

- هل أنت علي؟

نعم، أجبته بسرعة.

- اسمع، سوف أتكلم معك كصديق لصديق.. هل تريد أن نعاملك كما فعلنا في الأيام السابقة؟ أم كما اليوم؟

طبعاً أريدكم أن تعاملوني، كما فعلتم اليوم.

- حسناً، ثم أضاف: حقاً لقد نسيت أخبارك، أمك جاءت اليوم إلى هنا، مصطحبة معها ابنتك الصغيرة، كانت تريد أن تراك، لكن للأسف لم تستطيع.

نعم، وأين هي الآن؟ تساءلت بلهفة.

- عادت، وسوف اسمح لك برؤيتها غداً، أو حتى الذهاب معها إذا ما تعاونت معنا، لكن في حال لم تفعل، فسوف نستعيد معاً الأيام السابقة، السدية، البي بي آر، الكهرباء، التعليق، (يعدد وسائل التعذيب بروية وتلذذ) الخيار بيدك يا علي.

قل لي: كيف يمكنني مساعدتك؟

- بعض الكلمات تقولها، وأنا أتعهد لك إنك ستعود إلى منزلك وحياتك الطبيعية في اليوم نفسه.

موافق فقط قل لي هذه الكلمات، لأحفظها ما دامت ستعيدني إلى عائلتي؟

- خذ، هذه السيجارة.

وأثناء جذبي لأنفاس منها، بدأ يتكلم بعد أن تأفف متذمراً:

- علي قالها بحدة، سوف أعيد، لكن أحذرك من المراوغة: نريدك أن تقول، أنني منتمي إلى تنظيم داعش، وقمت بالمساعدة بتفجير، بعض العبوات الناسفة، فقط هذا ما نريد.

توسعت عيني وأنا أستمع لكلامه، أيقنت ساعتها أن الأمر ليس مزحة، لأني قبل هذه اللحظة، كان الأمر قد اختلط علي بين الحقيقة والوهم. شعرت فجأة بانقباضات في معدتي، كأنها حراب تلوك أمعائي.

كيف؟ بصوت تملؤه الدهشة.

- كما سمعت.

أسأل عني وسوف تعرف. أجبته، إلا أنه قاطعني منفعلاً وصار يصرخ:

- أووووه عدنا إلى هذا الكلام السخيف، لماذا أسأل عنك، أنت مجرد حشرة أسحقها بحذائي متى أشاء. لا أريد أن أسمع منك سوى كلمة موافق وإلا..!

دقائق قليلة، بين أن أنقذ نفسي من عذابات يومية لا يتحملها جسدي، وبين أن اعترف بتهمة لم افعلها، لن تنهي حياتي ومستقبلي فحسب، بل حياة من معي، ومستقبلهم "أمي، أبي، زوجتي، ابنتي، شقيقاتي، أصدقائي، والأهم من كل ذلك، الحقيقة.. الحقيقة التي قد تموت معي، والى الأبد ما إن أقدمت على قتل نفسي.

أسف. قلتها بصوت خفيض، كأني اكلم نفسي.

- زأر بغيظ: خذوه، ولن أوصيكم بما يجب أن تفعلوا.

قالها ورحل. دون أن أتوسل إليه، لأنهم سحبوني قبل أن أفتح فمي.

في هذه الأثناء وأنا في طريقي لأواجه قدري المحتوم، يقودني أحد الحراس ببطء، وكأنه يعذبني بهذا السير البطيء، التمعت في عقلي فكرة غريبة، لم أكن أعرف أن الخوف يدفع مخيلة الأنسان للتوهج، حتى أن أعظم الروائيين يعجزون عن ذلك.

أريد رؤية الضابط، لدي معلومة تذكرتها تواً. هكذا بدأتُ خطتي، وقفنا تركني الحارس، وذهب ليبلغ الضابط على ما يبدو، فعاد واصطحبني أليه، وفور وصولي قال الضابط.

- نعم يا علي ماذا لديك، أراك وقد بدأت تفكر بطريقة صحيحة.

نعم سيدي، لدي متفجرات أخبئها في قطعة أرض خالية قرب منزلي.

- ممتاز يا علي، خذوه وأجلسوه إلى أن اجهز، وأعطوه سيجارة أيضاً.

يا الله ما هذه الورطة التي رميت بها حالي، هل حقاً سيذهبون، ماذا سأفعل.. كيف سأخرج من ورطتي.. ليس مهم، لم يحدث أسوأ من ما أنا فيه.

أركبوني هذه المرة معهم داخل السيارة، ومع دخولنا منطقتي رفعوا العصابة من عيني، رأسي باتجاه النافذة.. كانت المنازل جميعها مغلقة الأبواب، رأيت منزلنا، كان ساكناً جداً وكأنه فرغ من أصحابه.

- ها علي أين نتجه؟ قال الضابط

من هنا سيدي، أشرت إلى طريق فرعي، دخلناه وبعد قليل أعاد نفس السؤال.

- والأن يا علي أين؟

أعتقد من هنا سيدي، وأشرت إلى فرع جانبي.

- تعتقد، قالها صارخاً.

في هذه اللحظة، ظهرت أمامنا ثلاثة قطع مجهزة للبناء، فقلت هذه سيدي وأومأت بيدي إلى أحداهن.. هنا المتفجرات، أوقفوا السيارة وفتحوا الأبواب.

- انتظروا لا تنزلوا، هكذا أمرنا الضابط. ثم ألتفت ألي وأكمل، أسمع يا علي، سوف ننزل من السيارة، ونحفر وإذا لم نجد شيء، قسماً بالله سأدفنك هنا، قل الحقيقة، قالها بغضب.

وبدل أن أنهار وأتوسل، صرت أصرخ بهم، في ثورة هياج غاضبة، ورحتُ أردد، بسببكم فعلت هذا، أنتم لا تريدون الحقيقة، ماذا تنتظرون مني، وأنتم تخنقوني وتعذبوني منذ أسبوع، ها ماذا تريدون أن افعل. رغم شعوري ببعض الدمعات، قد انسابت على وجهي لكني بقيت أصرخ، إلى أن غص صوتي واختنقت، بسبب تصاعد غضبي وانفعالي.

لم يردوا، أغلقوا الأبواب وعدنا.

أنزلوني من السيارة، أمشي معهم بمشقة بالكاد أسند حالي، لأن ركبّي أرخاهن الخوف والتعب، وما عُدن قادرات على حملي، أتسأل ماذا سيفعلون بي، شعرت ساعتها أن حياتي شارفت على نهايتها.

في هذه اللحظة بالضبط، سُمع رنين هاتف الضابط، كأنه جاء لإنقاذي، وما إن أجاب حتى بدأ بالسباب والصراخ، فهمت بعد قليل إنها زوجته، اتصلت لتبلغه إن ابنته ترقد في المستشفى، بسبب تناولها جرعة من نفط التدفئة. خرج مسرعاً، وهو يردد:

- بصموا هذا الكلب على أقواله، ولا تأخذوه إلى القاضي صباحاً، قبل أن أراه.

* * * * *

أفكر في هؤلاء الناس، وأنا أجلسُ ساندًا ظهري إلى الحائط، إنهم بشرٌ مثلُنا، يحبون أبنائهم مثلنا، ويصلون بطمأنينة مثلنا، أسمعهم يتمازحون، يتضاحكون، في ما بينهم كما أفعل مع أصدقائي، فلماذا يعذبونا وهم مطمئنون، بلا أي شعور بوخز الضمير؟ لماذا لا يعتريهم شعور بالذنب حيال ما يفعلون؟ تساؤلات تتدافع في رأسي، هل نزعوا عنا ثوب الأنسان، والبسونا ثوب الإرهاب، ولأجل هذا يضربونا وهم مرتاحين، لم أحصل على إجابة؟ لكني تذكرت شهادة لأحد الجنود الأمريكان المشاركين في حرب فيتنام، قرأتها مؤخراً حيث يقول:

- كانوا يوصونا بعدم النظر مباشرةٍ إلى عيون الفيتناميين، عندما نطلق النار عليهم، لأننا اذا رأينا عيونهم سوف نرى الأنسان، ساعتها لن نستطيع قتلهم.

في نهاية المطاف عذرتهم، لأنهم يرون فيَ علي الإرهابي، وليس من أكون بالحقيقة، لذا لم أكن لأحقد عليهم.

بقيت على هذا الحال إلى أن أخرجتني لكمة على مؤخرة رأسي من ما أنا فيه، فطارت الأفكار من راسي، مثل طيور سمعت صوت انفجار قريب.

انتظرتُ صديقي سالم، لأحدثه عما حصل في فترة غيابه. وبعد مرور ساعة أو حوالي ذلك، فالوقت هنا مجهول تماماً، وتقديره صعب في مثل هذا المكان، كأنك في مغارة للوحوش، لا ضوء في نهايتها.

وقع أقدام تطرق سمعي، تقترب، بسكون، قلت:

سالم؟

- كيف عرفت؟ أجابني مستغرباً!

أميزك من خطواتك، كما أميز الأخرين.

يبدو إن إحدى الحواس حين تغيب، تقوم الأخرى ببعض مهامها.. صرت افهم كثيراً من الأشياء حولي، وكأن عيوني المغلقة، تم تعويضهن بقرون استشعار في مؤخرة رأسي مثل صرصار.

على أية حال، ارغب بالذهاب إلى الحمام إن أمكن؟

- تمام، فقط لحظات.

لم أكن بحاجة إلى الحمام، ألا أني أجده المكان الأنسب للحديث مع سالم، كُنتُ حريصاً على أن لا يعلم أحد بأني أحدثه، وإنه قد تعاطف معي، وما إن وصلت الحمام حتى حدثت سالم عما جرى، وأجابني قائلا:

- جيد يا علي انك أخبرتني، لأني أريد أن أخبرك سراً، لكن أولاً عِدّني أن لا يعلم أحد بما سأقول، لأن ذلك سيوقع علي الأذى.

أقسمت لهُ، بأني لن أبوح بحرفٍ، قد يؤدي إلى إيذائه. فقال :

- لقد سمعتهم قبل قليل، يتحدثون عما ينوون فعلهُ بكَ.

ماذا سمعت؟

- غداً صباحاً سوف يعرضونك على قاضٍ وهمي.

لا أفهم يا سالم، ماذا تقصد بالقاضي الوهمي؟

- ركز معي سأوضح لك الأمر، هناك مرحلة تسمى "التحقيق الابتدائي" وهذا ما جرى لك في الأيام الستة الماضية، وبعد الانتهاء من هذه المرحلة سوف يعرضونك أمام القاضي، لكي تخلص نفسك و تقول أمامه ما طلبوا منك. أما ما ينوون فعله معك يوم غد، أنهم سيدخلونك إلى أحد الضباط، مدعين انه هو القاضي، لكي يختبروك أن كنت ستقول عما جرى لك أم لا.

وإن رفضت، قول ما يريدوه؟

- إياك أن تفعل ذلك يا علي، إياك لأنهم عند ذاك سيضاعفون التعذيب، سيجعلونك تتمنى السدية. قالها بتأكيد

وماذا إن عُرضت فيما بعد، على قاضٍ حقيقي؟

- اسمع، اليوم حين تركتك قبل ساعات، قمتُ بالتواصل مع عائلتك. أخبروني بأن هناك جهات من بغداد قد تدخلت، وسيتم أطلاق سراحك فور عودتك من القاضي، كما إني نسيت أن أخبرك إن هنالك عفواً، سيصدر خلال الأيام القليلة المقبلة، وسيتم بموجبه إطلاق سراح جميع السجناء، لذلك أنصحك بأن تقول ما يراد منك، لأن قلبي يتفطر وأنا أراهم يفعلون بك كل هذا، وبالمناسبة هذا رأيُ أمك كذلك.

حسناً، قلتها بشرود.

- هيا، أدخل الحمام.

لا أريد، هلا أرجعتني إلى مكاني؟

عاد بي إلى حيث كنتُ أقف، وأعطاني سيجارة ورحل.

ذاهلاً أحاول ترتيب أفكاري المشتتة، لكن دونما جدوى، كم كنت أتمنى لو انه أعطاني حلاً آخر لمصيبتي، لكنه تركني فريسة الأفكار. هل يريد توريطي، أم هو صادق في ما يقول، لقد عجزت عن فهم هذا السالم.

مرت تلك الليلة طويلة، ثقيلة، زادها هلعاً، سماعي لصوت الضابط الذي حدثني، بعد عودته من المستشفى.

جاء قربي ملامسًا يدي بقطعة من الحديد، طالباً مني أن أتلمس هذا الشيء، لمستها، تحسستها، فقال:

- هل عرفت ما هذا؟

نعم، أنهُ قضيب حديدي.

- أحسنت، هل تعلم أين سأضعه اذا لم تتعاون معنا؟

نعم، أومأت برأسي، في إشارة بأنني فهمت.

بعد سبعة أيام من التعذيب، نجحوا تماماً في كسري، وفي غرس الرعب في نفسي، تحولت إلى رجلٌ آلي، لا يعرف سوى كلمة نعم، لو قالوا لي أنك فجرت مركز التجارة العالمي لقلت نعم، ولو أرادوا أن أكون مؤسس الإرهاب العالمي لقلت نعم، نعم وفقط.

ثم قال الضابط، بصوتٍ ساخط:

- اسمع، لا يوجد لدينا وقتٌ نضيعه مع سافل مثلك.

سحبني إلى مكان مجاور، حتى اصطدمت قدمي بطاولة أوقفتني، رفع يدي المكبلتين ممسكاً بإبهامي بقوة، ليقوم بأخذ بصماتي عدة مرات، يقلب ورقة ويبصم، يقلب ويبصم. حاولتُ تحريك العصابة من عيني، لأرى ما يحدث لكن بلا فائِدَة، فقطعة القماش تلك كانت سميكة، وقد شدت بقوة، ما جعل الليالي هنا لا تنتهي، سرمدية، بلا نجوم. بعد أن أنتهى، بدأ من جديد يطلق التهديدات، في حال إني تراجعت عما كتب في الورقة

التي أبصمني عليها، والمتضمنة اعترافات، بأني إرهابي، وقمت بمساعدة العديد من الجماعات للقيام بعمليات إجرامية.

-٣-

صباحًا نغزني أحدهم، بمقدمة حذائه على خاصرتني، مردداً:

- هي، هيا أستيقظ بسرعة.

ألبسوني ثوباً مهترئاً، لأني ومنذ اعتقالي كنت لا أرتدي سوى لباس داخلي قصير، ثم عاودوا توثيق يدي إلى الخلف بإحكام، كما ابقوا عينيّ معصوبتين، شخصان اقتاداني إلى الخارج، كل واحد أمسكني من ذراع من عند المرفق، وفي حركة خاطفة لم اشعر سوى إني أرمى في حوض السيارة الخلفي.

لننطلق في رحلة استغرقت دقائق قليلة، تضمنت عبارات الوعيد والتهديد والسب.. لم تعد تلك العبارات تخيفني، لأنني تعودت عليها ماعدا الخنق طبعاً، الذي بقي مرعبي، يزورني في يقظتي، ومنامي إلى اليوم، حتى عندما كانوا يستخدمون الوسائل الأخرى لتعذيبي، كنت أبالغ بالصراخ والألم، لعلي أوهمهم أن هذه الوسائل أكثر إيلاماً من الخنق.

أنزلوني من السيارة، وأدخلوني إلى مكان عرفت لاحقاً أنها المحكمة، أمروني أن يبقى وجهي ملتصقاً بالحائط، امتثلت لأوامرهم. مر وقت ليس بالقصير، حين سمعت أحدهم ينادي باسمي.

نعم، أجبت بصوت مبحوح.

- إنه هنا. قالها الحارس الواقف بجواري بصوت أعلى.

طلب المنادي من الحارس، أن يحل وثاقي ويرفع الغطاء عن عيني ويأتي بي، وهذا ما قام بفعله.

شرطيان دفعاني أمامهم، احدهم أمسك يدي إلى الخلف، والأخر وضع يده على رأسي، دافعاً بهِ إلى الأسفل، حتى أوصل رأسي إلى منطقة السرة، وعلى هذه الحال قاموا بالهرولة، وانا معهم، إلى أن وصلنا إلى باب، فتحوه ودفعوني إلى الداخل بمفردي، وأغلق الباب.

كنت مرتجف الأنفاس، خائفاً، ذليلاً، شاردًا كثور أُخرج تواً من حلبة مصارعة إسبانية، بالكاد رفعت رأسي، ورحت أتفحص المكان، وجدت أمامي رجلان يجلسان باتزان، أحدهم أمامي مباشرة والأخر بجواره، قبالتهم طاولة من الخشب الصقيل، بسيطة لكنها أنيقة، إلى اليمين يجلس شخص يراقبني بعطف، من فوق نظارته الصغيرة. إلى اليسار يجلس أكثر من شخص أحدهم سمين، في حجره مجموعة أوراق.

نظرت إلى الجميع بعدم اكتراث، ليعود بصري بعدها ليستقر على الشخص الجالس أمامي مباشرة، كان وجهه ممتلئاً تكسوه سمرة لامعة، قسماته وقورة لا تنقصها الجدية، كأنه مسؤول سوفيتي، تركز اهتمامي بهِ؛ لأن كل المؤشرات تؤكد أنه الأهم من بين الجالسين. وعلى الرغم من ذلك، كنت استرق النظر إلى الرجل الجالس بجواره، كان اقل سمرة بكثير، ذو عينين خفيفتي الخضرة، وابتسامة تدعو للطمأنينة، كانوا جميعهم يرتدون بدلات وأربطة، بألوان وموديلات مختلفة.

- ما أسمك؟ سألني الرجل الأسمر، ذو الوجه الممتلئ، بعينين خاليتين من التعبير.

رددت أسمي الثلاثي. ثم تابع يقول:

- هل تعلم أين أنت الأن؟ وهل تعلم من نكون؟

أطرقتُ برأسي إلى الأرض، دون أن أرد. ثم قال ضاغطاً على الكلمات:

- أسمع، أنت الآن في المحكمة، وأنا القاضي، وهذا مشيرًا بيده إلى الشخص الجالس بجانبه، الأستاذ نور المدعي العام، بعدها انتقلت يده ليشير إلى الشخص الجالس إلى يميني قائلا: المحامي.

كان صوته فخماً، وكأنه في مسلسل تاريخي.

نظرت اليهم بارتياب، وعدت بنظري إلى المتكلم، الذي بدأ بتوجيه الكلام ألي، فقال:

- أنت متهم بارتكاب جرائم إرهابية!

أكمل جملته، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامه خفيفة بالكاد شعرت بها، اغتصبت بدوري ابتسامة منكسرة، وأرجعت بصري إلى الأرض؛ متظاهراً بعدم فهم السؤال، أفكر بما قاله لي صديقي سالم.

كان القاضي يحثني على الكلام، دون أن انتبه لكلماته، فدماغي مستنفر ينتظر الإجابة على السؤال القائل "من هؤلاء؟".

كنت في صراع مع ذاتي، الكلمات متشبثة بأسناني، ترفض الخروج، قراراتي تنشطر بين ما قاله لي سالم، وهو أن اعترف لأتجنب التعذيب، وإنها محكمة وهمية، وبين صعوبة الأمر بأن أعترف بتهمة كهذه.. إلا أن القدر كعادته كان هو الفيصل، في هذه المغامرة القاسية.

طَرق أحدهم الباب ليحسم هذا الصراع، كان أحد الحراس، وما إن فُتح الباب بعد كلمة تفضل. حتى تنحيتُ جانباً لأمنح القاضي والشرطي مساحة أكبر ليشاهدوا بعضهم بشكل أفضل، وأثناء ما كانوا يتكلمون عن أمر لم أعد أذكره التفت إلى الباب المفتوح لأرى المفاجئة أمامي.. نساءٌ يلبسن عباءات سوداء، بعضهن يسحبن أطفالاً، وأخريات يحملن أطفالهن بين أذرعهن، رجالٌ بهيئات مختلفة، يمسك بعضهم بيده حزمة أوراق، وآخرون يضعونها تحت آباطهم. يتنقلون بحرية في ذلك الممشى الطويل الواقع بمحاذاة الباب، أيقنتُ ساعتها إنها المحكمة، وإن كل ما قيل لي هو مجرد خدعة. كان الشخص الداخل ليتحدث إلى القاضي قد أعطاني بعض الوقت، لاستيعاب صدمتي، دهشتي، أو فرحتي باكتشاف الخديعة

مبكرًا، قبل أن أذهب ضحيتها، تلك الدقائق التي دارت بين القاضي والطارق، منحتني فرصة لتفحص ما إذا كان أحد "هؤلاء المخيفين" يقف خلف الباب الموارب، وبالفعل كان هنالك من يقف، فأومأت للقاضي بإشارة من عيني، ولحسن الحظ قرأها بشكل صحيح، فطلب بسرعة أن تغلق الباب، بعد أن أتم حديثه مع الرجل، وبدأ بالحديث معي من جديد.

بدأت السكينة تسري في جسدي، زادتها ممازحات المدعي العام وهو يقول:

- كيف حال الحزب الشيوعي، وأي الكتب قرأتها مؤخرًا؟

على الرغم من أن القاضي لم يكن مرتاحاً لهذه الممازحة؛ لأنه كان متدينا بعض الشيء، وتأكد لي ذلك لاحقاً، بعد أن طالب السجناء بالمحافظة على الصلاة أثناء زياراته للمعتقل.

كانت أول الكلمات التي قلتها، هي المطالبة بحمايتي، وأن يعطوني وعداً أن لا يصل الكلام لمن هم في الخارج.

- أعدُكَ.. قال القاضي وأردف، لكن بعد أن تقول الحقيقة.

يا سيادة القاضي، أن تربيتي، وثقافتي، والأخلاقيات التي أؤمن بها هي بالضد مما يقومون به هؤلاء الإرهابيون الأراذل، ومحاولة إلصاق مثل هذه التهم بي لهو أمرٌ مثير للاستغراب والسخرية.. وأثناء استمراري بالحديث، وفضح ما جرى شعرت أن الراحة بدأت تسود المكان. حتى قاطعني القاضي:

- لكن وصلتنا مؤشرات، تفيد بانك غير متدين، لا بل إنك تعادي الدين!

الطقوس الدينية، أعترف لك أنها ليست من أولوياتي. أجبته ببديهية رغم الحالة المزرية التي كنت عليها. لكني بالتأكيد لست ضد الدين، وأكملت قائلاً:

قد أختلف مع التدين، لكن مع الدين لا.

- وما هو الفرق بينهما؟ تساءل القاضي.

أن الدين هو القيم الأساسية، التي جاءت بها كافة الأديان، ناصحة أتباعها بالابتعاد عن الكذب، السرقة، والقتل، وأنا بالتأكيد مناصرٍ لهذه القيم.. أما التدين فهو التطبيق للدين.. داعش مثلاً تقول إنني اطبق الدين، وكثيرًا من الجماعات الإجرامية، حاولت تطبيق الدين ليس في الإسلام فحسب، بل كذلك اليهودية، والمسيحية، عانتا في حقب معلومة من هذا التطبيق والذي نسميه "تدين".

تبادل المدعي العام معي، بعض كلمات الثناء والأسف لما وصل أليه الحال، فتشجعت كثيراً وحاولت أن أحدثه عن ما تعرضت له من تعذيب، وقبل أن أبدأ قاطعني القاضي قائلاً:

- السدية ومشتقاتها، هل هذا ما تريد قوله؟

نعم، نعم، هذا ما أردت قوله.

- هل تستطيع أن تقول لي، أسماء الأشخاص الذين قاموا بتعذيبك؟

لا، لأنني لم أرَ أحداً منهم، ولم أعرف أسمائهم حتى.. تواً فقط ومع دخولي هنا رفُعت القماشة من عيني.

التفت القاضي إلى أحد الأشخاص، كان يمسك قلماً ومستعدٌ للكتابة، يدون كل ما يقال في المحاكمة، قائلاً له أكتب "إنني بريء من التهم الموجه لي، والتي تم انتزاعها مني تحت التعذيب، كما تم انتزاع بصمتي وانا مكبل اليدين ومعصوب العينين. ثم قال:

- هل لديك ما تضيف؟

كلا.

راح القاضي يقلب، أوراق الدعوة قائلاً:

- مذكور في الإفادة، اسم مادة كيميائية من أين جاؤوا بها؟

مني.

- كيف؟ قالها مستفهماً

أثناء الخنق، ولكي يقللوا من إيلامي، طلبوا مني اسم مادة كيميائية، وخشيت أن يضعوا اسماً لمادة حقيقية، فقلت لهم إني أقوم بصناعة المتفجرات من مادة صمغ الزانثان.

- وماهي هذه المادة؟

أنها مادة مثخنة يا سيادة القاضي، وتدخل في صناعة بعض العلاجات، وتباع أيضاً في الأسواق، لأنها مكون أساسي في صناعة المرطبات، وتستعمل كذلك في صناعة حلوى الأطفال، وتسمى محلياً ب "ثعلبية".

- ضحك القاضي قائلاً: هل حقاً هكذا تدار الأمور؟ وأكمل: على أي حال سأفاتح الجهات المختصة حول هذه المادة.

وبالفعل بعد أيام جاء الرد كما اعرفه مسبقاً، كوني اعمل في مجال صناعة الأدوية.

بعدها طلب مني أن أتنحى جانباً، وأرسل بطلب أخي، سائلاً إياه، مجموعة أسئلة، وكان رده كما قلت أنا، وتكلم عن أساليب التعذيب التي تعرض لها مضيفاً:

- إنهم كانوا يمسكون بجهازي التناسلي، متى غبت عن الوعي.

- فسأله القاضي مقاطعاً: هل خنقوك؟

تلألأ الدمع في عينيه قائلاً:

- كنت أموت، مع كل مرة يقومون بخنقي، إن التعذيب الذي مورس ضدي أمر لا يمكن تخيله. وأنهى حديثه: أنها مسرحية.

- أعلم، أعلم. قال القاضي وهو يهز رأسه.

بعدها أتجه إلى الشخص الذي كان يدون المحاكمة، مردداً على سمعه نفس العبارات. وانه لم ينتمِ أبداً إلى أي جماعة مسلحة، ثم قال لنا:

- هل لديكم ما تقولان؟

قلنا معاً: فقط لا تدعهم يعلمون أننا قلنا الحقيقة.

- لا تخافا، لن يعلموا.

ضغط القاضي على الجرس، ليدخل شخص يرتدي زي الشرطة، أمره بإخراجنا، وما إن هممت بالخروج حتى أوقفني القاضي بسؤاله عن الثوب الذي كنت أرتديه قائلاً:

- من أين لك هذا الثوب؟

أحدهم قام بإلباسي إياه، قبل المجيئ إلى هنا.

هز القاضي رأسه، يميناً ويساراً مع ابتسامة أسى.

انتبهت لأول مرة إلى الثوب، كان قصيراً جداً، وبالكاد يغطي ركبتي.

ابتسامة القاضي لم افهمها، إلا بعد حين، فقد كان المقصود من هذا الثوب، انهم يريدون إيهام القاضي بأن هذا الثوب لي، لأنه يُعد زياً خاصاً بالجماعات المتشددة دينياً.

خرجنا أنا وأخي ورؤوسنا محنية إلى الأسفل، وبسرعة أوصلونا إلى الغرفة المخصصة لنا في المحكمة، وقفنا هناك حتى جاء أحدهم ليسألنا عما دار بيننا وبين القاضي، فأجبناه بأننا قلنا ما تم الاتفاق عليه، ربت على كتفينا قائلاً:

- أحسنتم.

جاء بعده اكثر من شخص، مرددين ذات السؤال، وكان ردنا متطابقاً، أننا قلنا ما أردتم، واعترفنا له بأننا إرهابيون. كانوا يردون بكلمات الثناء علينا. ليقول أحدهم:

- جيد ما فعلتم، سوف ترتاحون الأن في السجن، تسبحون، تأكلون وتنامون.

بعد دقائق اقتادونا إلى السيارة، ليعيدونا من حيثُ جئنا.

في مقر استخبارات سامراء، رصفونا إلى أحد الجدران، كنا نقف مطمئنين، إلى أن ما قلنا سيبقى سراً، إلا أن سذاجتنا هي ما جعلتنا نعتقد هذا.. إذ فوجئنا بأن الأوراق التحقيقية تعود معنا، كون ذلك هو السياق المتبع بالعادة.

وماهي إلا دقائق حتى بدأ صراخهم يعلوا فيما بينهم، وراحوا يرددون كلمات مثل:

- انظر هؤلاء الكلاب، ماذا قالوا للقاضي، لقد انكروا ما تم الاتفاق عليه، لقد أبلغوا القاضي بأننا عذبناهم.. يا أولاد القحبة.

في غضون دقائق معدودة، تجمع حولنا ستة إلى سبعة أشخاص. كلماتهم، أنفاسهم، تنضح بالكراهية نحونا.. راحوا يهاجمونا مثل وحوش برية، يضربونا بلا هوادة بقبضاتهم العنيفة كيف ما أتفق، رافق ذلك سيل من الشتائم، كان موضوعها الأساسي أجهزتنا التناسلية. شعرت بأنني وشقيقي، صرنا مثل أكياس للتدريب، وسط مجموعة من محترفي الملاكمة.. لكن ما أدهشني تلك الساعة، أنني عندما كنت أتلقى اللكمات و الرفسات، التي غطت كامل جسدي، لم اشعر بأي ألم، لا بل كنت أعيش حالة من الفرح والزهو والسعادة؛ إنها لذة الانتصار، وحالة الخروج من الموت، من العار الذي حاولوا أن يلصقوه بي.

كلانا تعب، هم من فرط ما ضربونا، ونحنُ أيضاً تعبنا من تلقي الضربات، حتى جاء صوتٌ من بعيد، يطلب منهم التوقف وأخذنا إلى الموقف فوراً.

ساعدنا واحدٌ منهم على النهوض، بعد أن سقطنا أرضاً من وقع الركلات، توجهنا بعد توديعنا بهذه الطريقة، بمعية أثنين من الحراس إلى الموقف.

كان السجن يبعد عن مبنى استخبارات سامراء، ما يقارب الخمسين متراً سيراً على الأقدام.. وأمام غرفة ضابط المعتقل رفعوا العصابة من أعيننا، وفتحوا "الكلبشات" من أيدينا، فوقعت عيني أولاً على أخي، كان شاحب الوجه، و الجانب الأيمن من شفته السفلى تنزفُ دماً، التفت ضابط الموقف متسائلاً:

- ما هذا الدم النازف من فمك؟

نظر أخي بدوره إلى عناصر الأمن، الذين جاءوا بنا إلى الموقف، وأجاب:

- لقد اصطدمت في الباب.

أبتسم الضابط ابتسامة العارف بأن أخي يكذب، هز رأسه وقام بالتوقيع على استلامنا، منادياً احد حراس الموقف، طالباً منه أن يضع كل واحد منا في زنزانة.

- ٤ -

اصطحبنا الحارس كما طُلب منه، في ممر طويل يقع مباشرة أمام غرفة الضابط.. الزنازين تصطف واحدة بجوار الأخرى على يمين الممر، سجناء وقفوا قرب القضبان، يريدون مشاهدة الزبائن الجدد، رحب بنا بعضهم بابتسامة والبعض بإشارة خجولة من يده، هناك وجوه أعرفها لأن غالبية المعتقلين من أبناء مدينتي.

أوقفنا الحارس في نهاية الممر، منادياً على أحد المعتقلين، يدعى أحمد الحلاق، حرك أحمد الماكنة الكهربائية على رؤوسنا، مرة بعد أخرى إلى أن أصبحت مثل بيضة نعامة، (طهرنا رؤوسكم من أي ملاذ للقمل) قالها الحلاق ساخراً. بعدها، أدخلونا إلى قاعات السجن.

كانت القاعة الثانية من نصيبي، وعلمتُ بعد قليل إن أخي أُخذ إلى الثامنة.

كانت المرة الأولى في حياتي التي ادخل فيها السجن، دخلت متوجساً، الإنارة سيئة جداً، بالكاد أرى وجوه الموجودين، أحتاج بصري دقائق

لكي يتأقلم مع ضوء السجن الخافت، حتى بدأت الوجوه تتضح شيئاً فشيئاً.

كان المكان مزدحماً بالجثث، التي لا تنقطع عن الثرثرة، تتصاعدُ منها الأدخنة، يستنشقون الهواء المتعفن، وينفثون الدخان من سجائرهم.. الحيطان قبيحة متأكلة، في ركن المكان هناك قطعة قماش قذرة المنظر، تمثلُ ستراً، تَحجبُ مساحة متر أو أقل بقليل، كنا بالكاد نجلس لقضاء حاجتنا، ويكون الاغتسال على نفس الحال. من ذلك المرافق كانت تنبعث رائحة البول والغائط، لتختلط مع رائحة الكبريت المنبعثة من أجساد السجناء، كانوا يستخدمون الكبريت كعلاج للجرب المنتشر.

حاولت التركيز بملامح من حولي، قبل أن يطلب مني احدهم الجلوس، قائلاً إنه مسؤول القاعة (المراقب) كما سمى نفسه، جلست بجواره، عرفني باسمه، وأنا كذلك، وراح يتحدث عن تاريخ اعتقاله، الذي يعود لأكثر من عامين، وقد كُلف بمهمة مراقب القاعة من قبل إدارة السجن، كونه سجين ذو خبرة، ومن مهامه ترتيب أمور السجناء، كاستلام الطعام وتوزيعه، مواعيد النوم، الاستيقاظ، معرفة عدد المعتقلين في القاعة وأسمائهم، ثم وجه لي بعض الأسئلة الشخصية : اسمي، عملي، مكان السكن ولماذا أنا هنا؟ كانت إجاباتي مقتضبة للغاية، سألته عن الرائحة المنفرة؟ أبتسم وقال.

- نحن لا نشم أي رائحة. على العموم ستعتاد على كل شيء بعد أيام.

تركني، بعد أن سمع من يناديه من خلف القضبان، طالباً منه استلام العشاء.. حسناً فعل لأني لم أكن راغباً بالكلام.

ما إن ابتعد المراقب، حتى أسندتُ ظهري إلى الحائط، واضعاً رأسي بين كفّيَّ، أفكر هل حقاً هذه حقيقة، أم أنه كابوس سينتهي بمجرد أن أفيق من نومي.. تذكرت صديقي سالم وكيف كان يؤدي دور الكومبارس بطريقة سخيفة وحقيرة، في هذه الكوميديا السوداء.

للأسف، لطالما وثقت بالأخر حتى يثبت العكس، وأن كُنت على دراية أن عدد الطيبين في بلدي صاروا يتناقصون مثل حيوانات الباندا.

رفعت رأسي مجدداً، محاولاً تفحص تلك الوجوه المحتشدة أمامي، وقد شوهها الخوف والقلق، كنتُ افكر انهم مجموعة من المجرمين، وإني جئت لهذه الزنزانة بالخطأ، وسيطلق سراحي اليوم أو غداً على الأغلب، وسيقومون بالاعتذار مني عن كل ما حصل.

بعد قليل عاد المراقب حاملاً العشاء، كان عبارة عن صحن من البطاطا المسلوقة، مع أبريق شاي وأربعة أكياس من الخبز، نهض اثنان من السجناء لمساعدته، قاموا بتوزيع العشاء على السجناء بالتساوي، لم استطع في يومي الأول هذا سوى تناول كسرة خبز صغيرة، جلبها لي أحد المعتقلين، أخذتها بعد إلحاح مع قليل من الشاي المسكوب في قدح مصنوع من علبة الكتشاب الفارغة، التي تم قصها بعناية لتستخدم كقدح، ومنها أيضاً يصنعون سكين لتقطيع الطماطم والخيار، وهناك من يقوم ببرم قطع صغيرة من البلاستك، ليحولها إلى مسامير لتعليق حاجياته. السجن مكان ملائم لأبداع البدائل، ذلك لأن أي شيء، مصنوع من الحديد، أو الزجاج، أو البلاستيك المقوى، ممنوع من الاستعمال.

رجعتُ إلى مكاني، بعد تناول وجبة العشاء دون رغبة، سارحاً بأفكاري المرتبكة، أراجع ما جرى، ويجري وسيجري، فوجدتني أبكي كطفلٍ ضائع، ذرفت لحظتها كل الدموع المؤجلة.

نبهنا المراقب بأنها العاشرة ليلاً، وقد حان وقت النوم، بدأ السجناء الاستعداد لذلك، نهضوا جميعاً وفعلت أنا مثلهم. سمعت احد المعتقلين يتحدث للمراقب قائلاً:

- إن السجناء ازدادوا اليوم ثلاثة، لهذا (گيزوهم) جيداً، يجب رصهم بشكل محكم دون ترك أية فراغات بينهم.

بعد قليل فهمت ماذا قصد من كلمة (گيزوهم)، يعني أن النوم يكون بطريقة "الگاز"، وهو أن تنام على أحد جوانبك، بشكل مستقيم ويأتي

السجين الأخر لينام مقابلك، بشكل معكوس لتصبح قدمك، وسادة له وقدمه وسادة لك، ثم يُطلب من احد السجناء جيدي البنية، أسناد ظهره إلى الحائط، ويبدأ برصنا بأقدامه، حتى تشعر أنك سوف تدخل بالسجين الأخر.

كانت مساحة القاعة ستة أمتار في أربعة أمتار، وهي مناسبة لعشرة أو خمسة عشر سجيناً على أكثر تقدير، إلا أنهم بهذه الطريقة جعلوا اكثر من ثمانية وخمسين معتقلاً ينحشرون فيها، لا مفر من النوم بهذه الطريقة.

أصبحت الزنزانة أشبه بعلبة التونة "السردين" بوضع السجناء أثناء النوم، فبالإضافة إلى ما تصاب به يدك من خدر، وقدمك أيضًا بسبب نوم السجين الأخر عليها، لم يكن بمقدورنا الذهاب إلى الحمام حتى الصباح، لهذا علينا حبس البول والغائط، لأن من ينجح بالنهوض والذهاب إلى الحمام ليلاً، لن يستطع العودة إلى موقعه والنوم من جديد، فالمكان سيردم بشكل آلي بالجثث المندمجة، وبالتالي ستضطر للوقوف منتظراً حتى حلول الصباح، وإلا فعليك إيقاظ جميع السجناء، وإعادة حشرهم مرة أخرى، وهذا آمر شبه مستحيل؛ كون الكاميرات المنصوبة فوق رؤوسنا، سترصد أننا يقظين في وقت النوم، مما سيأتي بالوبال على الجميع، وكان الحل لبعض السجناء هو إخراج بعض الغازات للتخفيف من الفضلات التي تعتصر في بطونهم، ومع استنشاق هذه الروائح، يتضاعف اختناقك، ويزداد احتراق عينيك، حتى يسيطر عليك شعور بأنك عالق في شبكة للمجاري.

انتهت ليلتي الأولى، على هذا النحو حتى مجيء الحرس في الصبح الباكر، منادياً على الجميع أن ينهضوا، وأن نستعد لاستقبال وجبة الإفطار، كنت أراقب حركة السجناء، وكأنهم آلفوا المكان وتعودوا عليه، كانوا نشيطين مقسمين إلى مجموعات يسمونها (حضائر)، تحتوي كل حضيرة على أربعة أو خمسة أشخاص، ويكون المسؤول عنها واحداً منهم، حيث يقوم باستلام الطعام لزملائه وتقسيمه.

بعد الانتهاء من توزيع الإفطار، أخذ كل واحد مكانه، وبدأوا بتناول الطعام، بقيت أنا في مكاني حتى ناداني أحدهم قائلاً:

- تعال، أنت معي حضيرتك الثالثة.

جلست خجلاً، كأنني في منزل أدخله للمرة الأولى، لرجل لا اعرفه، أعطاني زملائي المعتقلين قطعة من الخبز، بحجمِ كف اليد، أخذت معها قطعة الجبن المخصصة لي، لففتها وتناولتها بنهم، لأنني كنت جائعاً، بل جائعاً جداً، ومع تناول بعض الشاي انتهيت من فطوري في صباحي الأول في تلك الزنزانة.

اتكأت إلى الجدار منزوياً، محاولاً الابتعاد عمّن حولي، إلا أنهم ما إن انهوا إفطارهم حتى تحلقوا حولي، لأكون موضوعهم اليوم، والذي سيحاولون معه قضاء ساعات السجن الثقيلة، فأصبحت مركز الدائرة، وبدأت الأسئلة تنهال علي، بدءاً بالأسئلة المعتادة وصولاً إلى قضيتي.

في الواقع شعرت إنني أيضا بحاجة للتواصل معهم، لفهم الأمور أكثر، رحت أحدثتهم عن التحقيق، وما قلته أمام القاضي، الذي ادركت وفهمت انه سيكون المحدد الأخير لمصيري، لأن كل ما جرى، وما بصمت عليه وانا مكبل الأيدي ومعصوب الأعين، لا يتعدى أن يكون حبراً على ورق.

بعض السجناء لم يصدق، من إنني قلت الحقيقة أمام قاضي التحقيق، ذلك لأن غالبيتهم قالوا أمام القاضي ما طلبه المحققون، لا الحقيقة، فقال أحدهم موجها كلامه لي:

- كيف لم يكتب لك القاضي أعادة تحقيق، ويعيدك اليهم كما فعل معي؟ هكذا قال السجين الجالس أمامي وأسمه أيهاب.

قلتُ لا أعرف، لكن ما قرأته عند القاضي ووقعت عليه هو ما قلته لكم تواً، أنني بريء وحدثته عما فعلوا بي خلال التحقيق.

- لماذا تم اعتقالك؟ قال آخر.

لا أعلم، أجبت.

- كيف لا تعلم؟ هنا لا يأتي أحد دون سبب.

ماذا؟ ماذا تعني بكلمة دون سبب، قلتها منزعجاً.

أخذ دفة الحديث احد قدامى المساجين، أسمه ثروت كان يملك فتحتي أنف كبيرتين، وهناك وحمة بارزة تحت عينه اليسرى مباشرة، كان في الثلاثين من عمره أو هكذا يبدو، حيث قال.

- اسمع يا علي، حين يتم اعتقال شخص ما، فأن هناك ثلاثة أسباب للاعتقال، وسأشرح لك هذه الأسباب الثلاثة.

بانتباه، حركت رأسي موافقاً.

- الأول: وجود مصدر، ومعناه أن يقوم أحد الأشخاص بكتابة تقرير عنك، يتهمك فيه اتهاماً معيناً، أو مجموعة اتهامات، وهذا لا يحتاج وفق قانون (٤ إرهاب) أي دليل أو شهود، يكفي أن التقرير كتب عنك، وفي بعض الأحيان يطلب القاضي من المصدر أداء القسم أمامه، وغالباً لا يأتي المصدر، ويتم اطلاق سراحك بعد اكتمال التزكيات الرسمية، وانقضاء فترة السجن التي قد تصل إلى سنوات.

قاطعته قائلاً، هل تتم معاقبة المصدر، اذا ما ثبت أن المتهم بريء؟

- بالتأكيد لا، أجابني مبتسماً، وأكمل حديثه: السبب الثاني، هو شاهد متهم.

شاهد متهم؟!

- نعم، كما سمعت، في بعض الأحيان يقوم المعتقل، لأجل تخفيف التعذيب عنه، أو لابتزاز احد الميسورين، بالاعتراف على أشخاص مدعياً انهم معه. حتى أن هناك ضباط، يقومون باستخدام المعتقلين لأجل الخلاص من أعدائهم، خاصة أولئك الذين لا يتحملون الضرب، فيقوم بعض الضباط وأثناء ممارسة التعذيب، بذكر أسماء لغرمائهم، أمام المعتقل.. (فائق) مثلاً.

قال هذا الاسم مشيراً إلى أحد الجالسين في الدائرة، كان يلعب كرة القدم، مع بعض الأصدقاء ليلاً، وعند عودته حدث انفجار في الشارع الذي كان يسلكه، وعلى أثر ذلك تم اعتقال كل من كان في الشارع (كرفه)، ومع استمرار الخنق اعترف بأنه هو من قام بالتفجير، ولأنه لم يسعف بواسطة، ولكون المحققين لا يريدون أن تسجل القضية ضد مجهول، لأن ذلك سيؤدي إلى معاقبتهم، أو يؤخر ترفيعاتهم، استمروا بخنقه حتى اعترف، على فريقه بالكامل، وهم الأن موزعين على القاعات وهذا احدهم (أشار بأصبعه على احد الجالسين).

والسبب الثالث؟ سألته.

- المشتكي.

دار النقاش حول هذه الأسباب، كنت أحاول التدخل أحياناً؛ لأستفهم بعض الأمور، إلا أن ما شغل تفكيري بعدها (أي من هذه الأسباب وراء مجيئي إلى هنا) فكرت كثيراً، لكن عجزت عن إيجاد الجواب، لأنني متيقن من مسألة محددة، وهي أني متصالح مع الأخرين، ولست على خلاف مع أحد، يؤدي بي إلى ما أنا عليه اليوم، ويؤذيني كل هذا الأذى.!

حتى المساء، كانت أسباب مجيئي المجهولة تشغلني، لكن ما إن سمعت الحرس ينادي، وهو يقف في بداية الممر المؤدي إلى الزنازين، باسمي واسم أخي، حتى توقف كل شيء، تملكني فَزع رهيب حتى كتم أنفاسي، التفت بحركة مذعورة إلى السجناء حولي، قائلاً بصوت مرتجف:

ماذا يريدون مني؟

عندما شاهدوا الذعر في عيني، راحوا يطمئنوني.

- لا تخف هناك استفسار أو زيارة، لأن التحقيق معك قد انتهى بعد عرضك على القاضي، وتحويلك إلى هنا. لا تخف، لا يوجد شيء.

جاء الحارس، حاملاً بيدهِ سلسلة مفاتيح، بعد أن نبهه مراقب القاعة، أن الاسم المذكور موجود هنا.. خرجت بخطى مرتعشة، حافياً، فأنتبه الحارس، فطلب مني أنتعال شيء في قدمي، مؤشراً إلى مجموعة من

الأحذية، المتكومة قرب باب السجن، لبست واحداً منها.. ثم رافقته إلى حيثُ غرفة الضابط، الواقعة في نهاية الممر. كان أخي قد سبقني إلى هناك، يقف أمام باب الغرفة، تبادلنا الابتسامات المفتعلة، ووقفت بجانبه.

وفور وقوفي بدأت أتلصص بارتياب إلى داخل غرفة الضابط، كان هناك شخصان، بعمر الشباب يرتديان البزة العسكرية، يجلسان بارتياح قرب الضابط، ومع رؤيتنا همّا بالوقوف متحدثين إلى الضابط، مؤكدين أنهم سيعيدوننا بعد قليل. لحظتها ارتعدت أوصالي، فقد تذكرت جيداً هذه الأصوات، أنها نفس الأصوات التي كُنت أسمعها خلال ساعات التعذيب، التفتُ إلى شقيقي بهلع، فهم ما كان يجول في خاطري، صرت أتوسل إلى ضابط الموقف، بكلمات متكسرة:

أرجوك، لا تدعهم يأخذونا.

- لا تخافوا، لا تخافوا، ابتسم الضابط، وابتسم الشخصان أيضاً قائلين:

- هيا بنا.

بعد جهد، جرانا جراً، مثل عجول تحاول الهروب من سكين الجزار.

كانت الدقائق بين الموقف ودائرة الاستخبارات تمر كأنها عقود، كنا لا نريد المشي كأن الأرض مفروشة بالإبر.. أعدت خلالها شريط الأحداث التي مرت خلال الأيام الفائتة، الخوف، الألم، الظلام، التفت لهم صارخاً:

ماذا تريدون أن تفعلوا بنا؟

- لا تخافوا، لا يوجد شيء.

لم أصدقهم، لكن ما باليد حيلة، سوى الذهاب معهم.

على بعد خطوات من المبنى (مبنى الآلام) رفعت رأسي؛ متأملاً ذلك المكان الرهيب، فجأة وإذا بي ألمح شعاع الأمل يبزغ أمامي.

عند بوابة المبنى يقف شخصٌ اعرفه، ابتسمت لهُ، رد هو كذلك بابتسامة مبتهجة. انه داوّد صديقي، يعمل مرافقاً لأبن خالتي القيادي في الحشد

الشعبي، انطلقت كالسهم، مُفلتاً يدي من وثاقها، غير عابئ بمن معي، احتضنته بقوة، راسماً مجموعة قُبل سريعة على خديه ورأسه، مثل أم رأت صغيرها بعد طول فراق، بعدها تركتهُ مسرعاً لأدخل المبنى بخطوات بلهاء، لأني أدركت جيداً أن أبن خالتي في الداخل، وفعلاً كان، احتضنته، وقبلته، كنت مثل يهودي في قبضة النازية، أنتصب أمامهُ أكثر من مسيح.. جلستُ ملتصقا بهِ، أحاول أن استمد القوة منه، أريدُ أن أرمم انكساري وأخفف من وجع الخوف الذي أطبق على روحي حتى تألمت.

تكلمنا عن الحال والأحوال، ولم أشر بكلمة إلى ما تعرضت له من تعذيب؛ كنت خائفاً أن ينتقموا مني حال ذهابه، بالرغم من أن أخي أشار إلى ذلك، قبل أن يتدخل احد الضباط لإنهاء الحديث في هذا الموضوع، قائلاً:

- لو كان لدينا دليل واحد ضدكم، لكانت الأمور اختلفت، وأن ما فعلنا معكم ليس ألا نزهة.

قاطعت كلامهم، مركزاً على القضية، وعلى أسباب اعتقالنا، فتحدث المقدم علي الأسود (يقال أنه مبتكر السدية)، عن ملابسات ما جرى قائلاً:

- هناك شخص يدعي احمد إسماعيل، يعمل حارساً في معمل للثلج، وهو احد أقاربكم كما عرفت، ويسكن ذات المنطقة حيث تسكنون. ولسوء حظه فقد تم اعتقاله مع مجموعة من الشباب، بعد أن حدث انفجار بالقرب من مكان عمله، وهو إجراء احترازي كما تعلمون، خصوصاً في المناطق التي تشهد عمليات إرهابية بشكل مستمر، وبعد التعمق معهُ بالتحقيق اعترف بأنه قام بتفجير قنبلة، لكن والحمد لله لم يؤذَ أحد.

لم يذكر الضابط، كيف تعمق بالتحقيق مع احمد إسماعيل، لكني فهمت جيداً كيف حدث ذلك، استمر الضابط المسؤول بالحديث مضيفاً:

- بعد أن طالبنا المتهم، بأسماء الأشخاص الذين ساعدوه بتنفيذ هذه العملية، ذكر أسماء تسعة أشخاص، وانتم من بينهم للأسف.

كنتُ أتابع حديثه، فاغر الفم، وكأنه يشرح قضية لا علاقة لهُ بها، وأن أحمد وحده هو من يتحمل ما جرى لنا. وفور انتهائه من سرد القصة، بادرت بسؤاله عن حالنا، وكيف سيكون وضعنا، فأردف قائلاً:

- منذ يوم أمس، وفور عودتكم من القاضي، (ناظراً إلي بنظرة عتب) وأكمل: بدأنا بالسؤال عنكم، وجميع من سألناهم أكدوا لنا أنكم بعيدين عن أي شبهة، لا بل أكدوا لنا اكثر من ذلك، وقالوا أن داعش لو امسك بكم لقطعكم، كونكم تخالفون مبادئهم، واليوم صباحاً جئنا بالمتهم أحمد إسماعيل من المعتقل، واكد لنا أنكم بعيدين عن أي عمل أجرامي، واقسم على القرآن بذلك.

قاطعته لأقول: ثق يا سيادة الضابط، رغم ما سبب لنا من أذى، لكن أؤكد لك، انه هو أيضاً، بعيد جداً عن أي عمل إرهابي أو شبهة.

أشار بيده أن أتوقف، قائلاً:

- اهتم بموضوعك فقط.

حاولت تغيير الموضوع كي لا يتضايق أكثر، فقلت:

نعم، وبعد أن توفر لديكم هذا الكم من الإثباتات، التي تؤكد براءتنا، متى ستخرجوننا من السجن؟

- لن يتأخر حبسكم طويلاً، مجرد إجراءات روتينية، وسيتم اطلاق سراحكم.

في هذه الأثناء، تدخل السيد مهدي، وهو قيادي عسكري في قوات بدر، كان يرافق ابن خالتي مازحاً.

- انظر كيف نقف معكم، رغم أنكم شيوعيون وتتحدثون عنا بالسوء دائماً.

علت الابتسامة وجوه الحاضرين، شكرتهم بدوري لما قاموا به من أجلنا.

طلب أخي من الضابط مستغلاً الفرصة أن يجمعنا سوياً في قاعة واحدة. وافق الأخير دون تردد.

أثناء عودتنا إلى الموقف، لم تفارق الابتسامة وجوهنا، حتى أن ضابط الموقف انتبه للأمر وقال مبتسماً:

- ذهبتم باكين وعدتم ضاحكين، فماذا جرى من وراء هذه الزيارة؟

أجبته: أن الزيارة كانت جيدة.

- جيد، جيد.

قبل مغادرة الحرس المرافق لنا، ابلغ أحدهم ضابط الموقف:

- إن السيد مدير الاستخبارات، أمر أن يكونوا في نفس القاعة.

هز الضابط راسه موافقاً، وأمر احد حراس الموقف بان يجمعنا في القاعة التي نريد.

اصطحبنا الحارس، وأثناء التوجه إلى الممر المفضي إلى القاعات قال:

- في أي قاعة تريدون؟

سبقني شقيقي "نريد الثامنة"، لأنه كان فيها، وفعلاً دخلنا القاعة.

كانت تضم سجناء من خلفيات مختلفة وتهم مختلفة، رغم أن غالبيتهم موقوفون وفق المادة (٤ إرهاب)، لكن هناك تهم أخرى، تزوير، تجارة مخدرات، صكوك بدون رصيد، وغيرها.. بعد دخولي القاعة تقدم نحوي بعض السجناء، الذين أبدوا اهتماماً بالتعرف إلي، تبادلنا بعض كلمات الترحيب، وأثناء ذلك دخل العشاء، (معكرونة مع الهمبرگر) حسب جدول اليوم، كان معداً بطريقة سيئة، لكن على كل حال، لم يكن يشغلني الطعام كثيراً، بقدر ما كنت أتلهف لاستعادة حريتي.. كما يمكنك طلب الطعام من السوق بواسطة الشخصية المحورية في سجن سامراء، "أكرم أبو الحانون" هو احد أقدم المعتقلين، كان عمله يتركز على تلبية طلباتنا من خلال أرسالها مع احد أفراد الحرس، كان يأتينا بالسجائر أيام المنع،

ويقوم بالترتيب لأي شخص يريد الاتصال بذويه، وحتى مقابلتهم، كذلك يقوم بمتابعة أخر مستجدات قضايانا مع ضباط الدعاوي، كان المال هو الوسيلة الوحيدة، واذا ما امتلكته بكميات جيدة، فأن أكرم سيقوم بكل شيء، لذلك كنا نناديه تهكماً ب "النقيب أكرم".

تناولت بعض اللقيمات، لأعود واجلس في زاوية الزنزانة وحيداً. حاولت استرجاع ما دار من كلمات في زيارة هذا المساء، وبرغم أنها زيارة تعد إيجابية بكل المقاييس، ألا أنها نبهتني إلى مأساة كنت أغفلها.. كيف يمكن أن تنتهي حياتك لمجرد أن شخصاً ما قال عنك انك إرهابي! وكيف إن آخر بإمكانه حمايتكَ أو القضاء عليك، بغض النظر عن حقيقتك، إنه شعور قبيح أن يكون مصيرك بيد أحدهم، لا تدري ما اذا كان يحكم ضميره أم لا، في الوقت الذي يكون فيه القانون عاجزاً عن حمايتك كما هو في بلدي، يكون نفاقك هو من يحميك.

مرت الأيام متشابهة، كنت أستعد في كل يوم للخروج، متأملاً سماع اسمي، وقد أذيع من قبل الحراس، لكني أحبط في نهاية كل يوم، واستعيد الأمل في صباح اليوم الثاني.

لم يمر أسبوع دون أن يخبرونا، بأن اطلاق سراحنا سيتم في الأسبوع المقبل، هكذا قضينا فترة الاعتقال، كنت أصدق، لأني لم اجد خياراً آخر سوى أن أصدقهم، رغم شعوري أن ما يقولونه لي كذباً، لكن حرصي أن ابقى محافظاً على الأمل، هو ما يدفعني لتصديقهم، لأن فقدان الأمل بالنسبة لنا هو سجنٌ آخر.

وجوه تدخل، وأخرى تخرج، في السجن لا يعتاد السجناء على وجوه بعضهم، فجميعهم مفارقون، ولو بعد حين. أذكر جيداً أن علاقتي توطدت بالعسكريين، من المسلمين الشيعة، خلال الشهر الأول من سجني، كانوا من أهالي الناصرية، متهمين بقتل عنصر أمني، كان ضمن دورية دخلت إلى قاطع مسؤوليتهم، وبسبب تعدد الجهات الأمنية، وتداخل الصلاحيات، كانت مثل هكذا حوادث تتكرر بين الحين والأخر. دخول هؤلاء الأربعة، أضاف دماء جديدة إلى السجن، كانوا طيبين، كرماء، والأهم من ذلك كان

بينهم ضابط، وهذا ما أدى إلى تقليل العقوبات عنَّا. بالإضافة إلى الحوارات، التي تدور فيما بينهم، وبين المسلمين السنة، رغم اني كنت أراها مضيعة للوقت، لكن مضيعة الوقت في السجن أمرٌ جيد.

كان الفريقان يحاولان أثبات أي المذهبين على حق، وبعد شد وجذب، كانت النقاشات تنتهي باتهام بعضهم البعض بالعناد، وإن الأدلة المقدمة من كل فريق هي أدلة دامغة ومقنعة.. أحياناً كانوا يحاولون الاحتكام آلي، كوني شخص محايد أو هكذا يرون، فيكون ردي: إن من يمتلك السلاح يمتلك الحقيقة، أذ لا توجد أفكار انتشرت بالحوار، فالأفكار دائما تفرض فرضًا، حتى تلك الداعية للسلام.. فلا داعي لإخضاع القضايا الدينية للنقاش، وكأنها قضايا علمية أو عقلية، لأنك ستجد صعوبة في أقناع شخص من خارج توجهك، ديانتك، أو طائفتك أن احدهم مشى على الماء والأخر قام بالطيران مثلاً، أضف إلى ذلك، أنكم تختلفون بالكتب التي تعتبرونها دليلاً، فالسني يعتقد أن كتب الشيعة محرفة، والشيعي كذلك، يعتقد أن كتب السنة محرفة، فإذا كنتم غير متفقين على المصادر، فالنقاش سوف يكون لغواً.

كانوا بالمقابل يستمرون بنقاشاتهم، وأحيانا يتحدثون في مواضيع أخرى، حتى يحين وقت النوم.

كانوا يعانون من مرض اليقين، الذي عطل بصيرتهم عن رؤية الأخر.

خلال الأشهر الأولى، كنت أترقب بسعادة كل معتقل جديد يدخل الزنزانة، لأن هذا يعني قصصاً جديدة جاءت ألينا، لكن بعد مرور عامي الأول في السجن لم أعد اكترث، حيث أصبحت كل القصص متشابهة.

* * * * *

خلال هذه الفترة من السجن، وبسبب الزحام الشديد، والرطوبة العالية، والتهوية المعدومة.. صار مألوفاً انتشار الأمراض بيننا، خاصة الأمراض الجلدية، كنا "نهرش" حتى أثناء النوم، وفي كثير من الأحيان لا نتوقف عن الهرش إلا بعد خروج الدم من أجسادنا، صرنا نجرب كل ما يقع بين أيدينا من علاجات، كأننا فئران تجارب، لكن الأفضل بينها كانت البنزوات: وهي مواد سائلة شديدة التعقيم، نطلي بها أجسادنا بعد أن نستحم ونجفف أنفسنا بشكل جيد، ثم نتركها لأيام محاولين أن لا يمسها الماء، ثم نقوم بعدها بالاغتسال مرة ثانية، كان علاجاً لا بأس به لجلودنا. مستفيدين، من إرشادات المعتقلين القدامى، حيث نصحونا بأن نحافظ على تجفيف أجسادنا، وأن ننشف أيدينا بعد غسلها جيداً، وبهذه الطريقة سنحافظ على تعقيم أجسامنا، أما أرواحنا فكان الألم كفيلاً بتطهيرها.

أحياناً نرسل بطلب بعض حبوب الحساسية، بعد أن اكتشفنا أنها تحتوي مزايا أخرى، تجعل أدمغتنا خاملة، وأجسادنا مفككة، لتضاعف لدينا ساعات النوم المفيدة.

كما أبلغَنا هؤلاء السجناء المعتقون، أن نطلب من القاضي حين يزور المكان، السماح لنا بالخروج إلى الشمس، حتى ولو مرة واحدة في الأسبوع، لأن ذلك يقلل من ألم الجرب، وبالفعل بعد أن واظب القاضي على زيارتنا مرة كل أسبوع، بعد انقطاعه في الفترة السابقة.. راقبته وهو خلف القضبان يتحدث للسجناء عن قضاياهم، يسأل عن مطالبهم، كانت الشكوى الأكبر المقدمة له من قبل المعتقلين، هي مشكلة تأخر حسم الدعاوي. بقيتُ ذلك اليوم جالسًا حتى وقع نظره علي، بادلني الابتسامة مؤشراً بيده أن أقترب، تجاوزت السجناء بحذر، وعندما وصلت إلى الحاجز الذي كان يفصلني عنه قال:

- هناك بعض الكتب الضرورية في الدعوة، وسوف يطلق سراحك فور وصولها.

شكرته وعدت للجلوس، ثم سألني ما اذا كنت بحاجة إلى شيء؟ فشكرته مجدداً، وأبلغته بأني لا احتاج إلى شيء، وبعد أن لاحظتُ أن الوضع يسمح بالحديث، وأن القاضي بدا رائق المزاج، وقفتُ مجدداً لأخبره أننا نعاني من الهرش، الذي أدما أجسادنا، وأن اهم علاج لهُ كما قيل لنا هو الخروج إلى الشمس، فأتمنى أن توافق على هذا الطلب. وافقني السجناء بهمهمات تأييد لما قلت، فهز القاضي رأسه موافقاً.

بعد أيام بدأوا بإخراجنا لمواجهة الشمس، ساعة واحدة في الأسبوع، إلا أننا في كثير من المرات لم نكن نرى الشمس؛ لأن الشتاء كان قد حل، لكن بالعموم، كان ذلك افضل من لا شيء.

في الزيارات الأخرى للقاضي، التي تلت هذه الزيارة، كان طلب المعتقلين الوحيد تقريباً، هو التعجيل في حسم القضايا، فليس من المعقول أن يجلس المعتقل في السجن ينتظر كتاب من جهة ما لأشهر طويلة، وفي أحيان كثيرة إلى سنوات، ويكون هو وأهله عرضة للابتزاز. كنا نسمع في كل يوم عن قصص بيع أهالي المعتقلين لأغراضهم، وحتى لمنازلهم لأجل إخراج أبنائهم من السجون، أحياناً تعطى الأموال إلى الضباط، وفي أحيان أخرى للمحامي من اجل متابعة القضية.

-٥-

صرتُ أراقب باهتمام، كيف تصبح السجون بيئة ممتازة، لنشوء وتطور الغيبيات، ولا غرابة في ذلك، كون السجناء قد فقدوا الثقة بالعالم المحسوس، وراحوا يبحثون عن إجابات في عالم آخر، عن قصص تمنحهم الأمل والسلوى.

ومن بين أكثر هذه الأشياء تداولاً في السجون، هي الأحلام وتفسيراتها، ففي كل قاعة تقريباً هناك مفسر للأحلام، ويعتمد التفسير على البداهة والخيال الذي يملكه المفسر، فمثلاً إذا قال المعتقل: "أني رأيت شخصاً في منامي يلبس الأبيض"، قال المفسر "أنك ستسمع خبراً مفرحاً"، واذا كان شكل الزائر في المنام قبيحاً، قال المفسر: أن هناك من يعرقل قضيتك وهكذا.

ومن القصص الأخرى المنتشرة في السجون، هي وجود الأرواح، حيث كان اغلب السجناء موقنين تماماً أن القاعة السابعة مسكونة بالأرواح، وأن طفلاً يأتي بعد منتصف الليل، يطوف على السجناء، وأن أكثرهم يرونه، فكل سجين مرهف، لا يتحمل ظروف الاعتقال، يبدأ بالهلوسة، والحديث مع نفسه، كما هو حال هاني الذي لا يتوقف عن ترديد جملة واحدة يكررها دائماً:

- أريد تسليم نفسي إلى الشرطة.

لم نكن نرد عليه، سوى بابتسامة حزينة لما يجري له.

مثل هذه الحالات كانت تفسر، من قبل السجناء، على أنها جن دخل إلى جسد هاني، ليبدأ احدهم ممارسة طقوس غريبة على هذا السجين "المتلبس"، ويبدأون بقراءة آيات من القرآن في أذنه، لتنتهي هذه الطقوس الغرائبية بضربه بالنعال، ويكون نعال الحمام القذر هو الأمثل.

*　　*　　*　　*　　*

الأنسان داخل المعتقل يكون في أضعف حالاته، خانعاً، مكسوراً، وهذا ما يسهل دراسة النفس الإنسانية المتشابكة والمبهمة، كونها جلية تعبر عن حالها بوضوح.

كنت افكر دائماً، كيف أن موقع الإنسان، هو اكثر المحددات لطريقة تفكيره. فإذا كان سجيناً، على سبيل المثال، يشدد على قيم العدالة والمساواة ويستنكر اشد الاستنكار قيم الظلم والاضطهاد والكراهية، وحين ينال حريته، يعود ذلك الشرير المحتفي بقيم الشر والانتقام والاستعلاء.

كان ينام بجانبي في سجن سامراء شاب يدعى (حامد الأعمى)، هكذا كان يلقب، لأنه يرى قليلاً من خلال عين واحدة، وسبب نومه بجانبي؛ لأنه يخاف من بعض السجناء الذين تسبب في حبسهم، مستغلاً عمله كمصدرٍ لدى القوات الأمنية، كان يهدد العوائل في منطقة سكناه على أطرافً مدينة سامراء، وإذا لم يدفعوا له المال، فانه سيقوم بالقسم على احد أبنائهم، مدعياً انتمائه إلى أحدى الجماعات الإرهابية، ومن لا يدفع فان مصيره السجن، تسبب حامد بحبس اكثر من خمسين شخصًا، وبسبب ذلك ضاقت المنطقة به ذرعاً، ليتطوع اثنان من أهالي المنطقة، ويذهبوا إلى القاضي ويقسموا أمامه متهمين إياه بانه هو الإرهابي، وهكذا نجحوا في التخلص من حامد الأعمى.

كلاهما يقدس القرآن، لكنهم لا يتورعون في لحظة الانتقام، من جعله مجرد وسيلة لتصفية الحسابات.

في أحيان كثيرة، كنت أرى حامد الأعمى يبكي، وحين أتدخل محاولاً التخفيف عنه، كان يجيبني بسخرية:

- لا يا علي، هذه ليست دموع الندم كما تعتقد، بل هي الحقد الذي يغلي في داخلي، إنني متألم على الساعات المؤجلة التي أقضيها هنا، أريد الخروج أريد أن انتقم منهم.

وهل تعرفت إليهم؟ سألته.

- طبعاً! مقابل القليل من المال، عرفت كل شيء.

حاول أن تبدأ حياتك من جديد. قلت له محاولاً أن ابعد عن رأسه فكرة الانتقام.

- اسف، هذه حياتي.

كان متألماً من الظلم، ويتوعد أن أول فعل سيقوم به هو ظلم من ظلمه، رغم أنه بالمقابل كان السبب بظلم الكثيرين، أدركت أن كل الأشياء ممكن لها أن تتغير، إلا الإنسان.

كانت أخلاق السجناء تتغير بحسب الضغوط المسلطة نحوهم، فكلما وسع المكان، ارتقت الأخلاق، وكلما تسربت أخبار مطمئنة، هدئت النفوس. أما اذا حدث العكس فأجواء السجن ستكون متوترة والأعصاب مستنفرة، وهذا ما يفسر المشاجرات اليومية بين السجناء، والتي تحدث لأسباب واهية، مثل أماكن النوم، أو سقوط قطرة ماء من شخص توضئ للتو، أو لمن الدور في الدخول إلى الحمامات وهكذا دواليك.

وبسبب كل هذه المَآسِي، أصبحنا أشخاصاً لا نفكر إلا بأنفسنا، فالهموم تعصرنا، لتخرج أسوأ ما لدينا.

فحين يمرض أحد السجناء، كنا قليلاً ما نجد من يعتني به، خاصة إذا طالت فترة مرضه، واصبح المرض مؤذياً، ليس للمريض فحسب، لكن لغالبية السجناء.

أحد هؤلاء الذين أصابتهم لعنة المرض، هو بشار ذلك المراهق، ذو الوجه الصغير بحجم البرتقالة.. فقد أصيب بالسكري، نتيجة الترهيب، والتخويف أثناء التعذيب الذي مورس ضده خلال فترة التحقيق، وبسبب

استفحال المرض، لم يعد بشار قادراً على السيطرة على غائطه وبوله، فصارا يسيلان دون علمه، لذلك كان السجناء يمتعضون، كلما دخل قاعتهم، فعاش المسكين أيامه الأخيرة متجولاً بين القاعات، بسبب نفور المعتقلين.

كنت أراقبه وهو يجلس عند مدخل التواليت، لا يرمش، نظراته ضائعة، تتأملان الفراغ، يحدق في اللاشيء كأن لا أحد أمامه، سوى صحراء لا أفق لها.

صار نحوله الشديد يتكشف كل يوم أكثر، وبدأ يذوب شَيئاً فَشيئاً، مثل قطعة زبدة على صفيح ملتهب. حتى صارت يداه تشبهان أعواد الماسحة. وفي احد الأيام أبلغنا الضابط، المسؤول عن قضية بشار، وانه شارف على الموت، فكان يرد الضابط: "موتة الكلب" بعد أيام من هذا الرد، مات بشار.. قضى يومه الأخير، يحدق في شيء لا نراه، وهو مستمر في فتح فمه وأغلاقه، يفتح ويغلق، وعلى هذا الحال لفظ أنفاسه الأخيرة، مثل سمكة استسلمت لقدرها.

***　　*　　*　　*　　***

وأنت تعيش في ظل هذه البشاعة التي تحيط بك من كل جانب، مطبقتاً على صدرك، حتى تشعر أنك ستنفجر من الوجع والألم، كان لزاماً على السجناء إيجاد متنفس لهم لكي لا يموتوا كمداً، فترى أكثر المعتقلين وقد تحولوا إلى متدينين جداً.

لكن ما ينتشر بين السجناء بشكل كبير هو (التدين النفعي)، ومن مواصفات هذه النسخة من الدين، يكون الواحد منهم بالعادة حديث التدين، وقد بدأ بالصلاة تواً عند دخوله السجن، وسيتركها فور انتهاء مصلحته مع الله، ساعة خروجه.

صار الدين أكثر ما يشغلهم، يقضون جل وقتهم في الصلاة، الصوم، وقراءة القران، وهو الكتاب الوحيد المسموح بإدخاله للسجن.

أراهم حين يقومون بأيقاظ المساجين وقت الصلاة، وعندما يقول شخصٌ ما، لمن ايقظه إنني لا أصلي، ينظرُ إليه والكراهية تنبعث من عينيه، حتى يجحظا بسبب ما سمع، وكأنه تلقى شتيمة في أمه.. بعضهم ينهضون لأداء الصلاة معهم، بعد أن يراهم على هذا الحال، خوفاً من إيذائه، وبعضهم يعود إلى النوم.

كانوا يعتقدون أن الله وكلهم على البشر، فصاروا أكثر حماساً من الله في تطبيق شرائعه.

كُنت أراهم يهتمون بمواعيد الصلاة اكثر من مضمونها، صلاتهم مجرد حركات يؤدونها.. لأنهم بعد الانتهاء من الصلاة يتشاجرون مع بعضهم، وكأنما كانوا يؤدون إحماء ما قبل النزال، وليس لغرض التطهر الروحي الذي يجب أن يتمتع به كل مصلي.

كان الرعب يتملك هذا النوع من السجناء، في حالة وجود أي فكرة جديدة، لأنهم يعتقدون أنها مؤامرة.. كانوا يعيشون حالة تخويف للذات، وأن العالم لا يوجد لديه عمل، إلا حياكة المؤامرات ضدهم، فهم في حالة حرب مستمرة مع الوهم، حرباً يرون أنها تشن ضد دينهم ومدنهم، والغريب إنني لم أر شخصاً يشوه الدين أكثر من هؤلاء.

كان أحد هؤلاء يدعى (علي النيسان)، محبوساً بتهمة شاهد زور مأجور، وبعد أن أُفُتضح أمره حُكم عليه بالسجن لستة اشهر فقط، كان يحدثنا بلا خجل كيف اخذ من شخص مبلغ الف دولار، مقابل أن يقسم على القرآن، أن هذا الشخص اشترى المنزل، وأعطى كامل المبلغ، لصاحب الدار قبل وفاته بأيام، وبعد قيام الورثة بالشكوى، أرسل القاضي بطلبه مع شريكه عبد الغفور، وعندما فرقهم القاضي، وسأل كل واحد منهم على حدة، عن فئة الأموال التي شاهدوا النصاب، وهو يعطيها لصاحب البيت المتوفي، بدأ كل واحد منهم يقول فئات مختلفة، علي النيسان قال أنها من فئة الخمسة وعشرين ألف، أما عبد الغفور فقد أراد أن يكون ذكياً، فقال أن

بعضها من فئة العشرة آلاف وبعضها من فئة الخمسة آلاف، وبمجرد أن صرخ القاضي بهم، اعترفوا بكل شيء.

كنت أراه يصلي كثيراً ويبكي أكثر، واقسم أمامنا انه تاب عن ما فعل، وسيكون أنساناً آخر فور أطلاق سراحه. إلا انه في يوم خروجه من السجن، ذهب إلى أمي العجوز المسكينة، ليأخذ منها مبلغ الف وخمسمائة دولار، مدعيا أنه يستطيع إخراجنا من المعتقل، لتقوم أمي باستدانة المبلغ من الجيران والأقرباء وإعطاءه إياه. ومن يومها لم نرَ وجهه.

لم يكن يأتي احد لزيارة علي النيسان هذا، و كنتُ غالباً ما أعطيه حصة من كل شيء يأتيني خلال الزيارات. حقاً لم أجد أكثر سفالة من الإنسان عندما يتسافل.

***　　*　　*　　*　　***

مع بداية شهري الخامس، في هذا السجن بدأت أتعود المكان، لا بل أكثر من ذلك، فحين تأتي زيارة من الأهل أريدها أن لا تطول، لأعود إلى زملائي في المعتقل بأسرع ما يمكن، لأن الشعور بان أكون حراً مجدداً أخذ بالأفول.

لكن في ظهيرة أحد الأيام، وأثناء ما كان القاضي يزورنا، وقفت لأتحدث معه، فأشار طالباً مني الاقتراب فاقتربت منه، حتى أصبحت ملتصقا به، ليس بيننا إلا الشباك الحديدي، الذي كان كبيراً على النمط الأمريكي؛ لان هذا السجن هو أحد المنتجات الأمريكية. فقال لي:

- خلال الأسبوع القادم، سوف تتحولون إلى سجن تكريت المركزي، وسأقوم بالإسراع في نقلكم إلى هناك؛ لان الإجراءات في تكريت ستكون اسرع.

شكرته، قائلاً: لكنك يا سيادة القاضي، أخبرتني في المرة السابقة، أن اطلاق سراحي سيتم من هنا، لأن قضيتي يسيرة. فرد علي قائلاً:

- أن كتاب الأمن الوطني، جاء سلبياً ضدك.

فتحت فمي مستغربا! كيف؟

- نعم كما سمعت يا علي، أن الأمن الوطني يوجه لك تهمة التحريض، والمشاركة في تظاهرات ساحة التحرير في بغداد.

سألته متفاجئاً: وهل يعاقب القانون شخصاً طالب بحقه؟

- التحريض تهمة، والمشاركة في مظاهرة غير مرخصة، أيضا تهمة.

انسحبت منه خائباً.. كنت اعتقد أن المكسب الوحيد بعد سقوط الدكتاتور هو أن نمتلك الحرية، لقول ما نؤمن به، إلا أن هذه كذبة أيضا، كذبة أضيفت إلى أخريات.

لقد منحونا حرية الكلام، وسلبوا منا حرية التعبير، رحتُ أردد مع نفسي، حرية الكلام لا تغير من الواقع شيئاً، نولد أحراراً، فدعونا كذلك، قلتها جالساً اقلب تاريخ العراق، منذ نشوء الدولة العراقية عام ١٩٢١م، ونحنُ ندفع ثمن أخطاء لم نرتكبها، افكر في جميع الأغبياء الذين حكموا العراق، وصولاً إلى الأغبياء الجدد، كُتب علينا أن نخرج من نار العسكر، لندخل جحيم الإسلاميين.

الأسبوع الأخير في سجن سامراء، كان طويلاً، لأني تحمست كثيراً للذهاب إلى سجن تكريت، عسى أن يكون ما قاله القاضي صحيحاً، وان الإجراءات هناك ستسير بشكل اسرع.

عاد هوس الحرية، والتحرر من هذه القضبان القبيحة يراودني من جديد. وبالفعل صدق ما قاله القاضي، فبعد أسبوع واحد، ومع ساعات الصباح الأول، حتى قبل مجيئ الإفطار، نادى الحرس بأسمائنا، من بين أربعة أو خمسة أشخاص، تم تسفيرهم معنا ذلك اليوم، ودعت زملائي المعتقلين

بالقبلات الممزوجة بالدموع. متمنين لنا أن لا يطول مكوثنا في الحبس مرددين، الله يفرج عنكم.

-٦-

وقفنا أمام غرفة ضابط الموقف؛ لإتمام بعض الإجراءات اللازمة، وفور الانتهاء، قاموا بربط أيدينا بطريقة محكمة، ليقتادونا بعدها إلى السيارة المنتظرة قرب باب المركز، كانت نوع بيك آب كبيرة، وضعونا في حوضها الخلفي، وقبل أن نتحرك صرخ أحدهم مهدداً.

- سنفتح النار على رؤوسكم، في حالة أي حركة مريبة، فهمتم.

هززنا رؤوسنا دون كلام.. مشى السائق ببطء، استدار مرتين، ثلاثة، قبل أن ينطلق بسرعة متزايدة، وبعد ساعة أو حوالي ذلك، تضمنتها بعض الوقفات القليلة خلال الطريق، وصلنا إلى سجن تكريت المركزي، المعروف بسجن الإرهاب.. سجن أعيد افتتاحه بعد تحرير المدينة من تنظيم داعش.

مقابل سجن تكريت ساعدنا الحراس على النزول، وبعد عدة خطوات وقفنا أمام باب كبير يُفتح من الداخل، يليه مباشرةٍ على اليمين تقع غرفة ضابط الموقف، لم ندخلها فقط أوراقنا دخلت، وقعوا على تسليمنا ورحلوا.

كان السجن يضم أربعة قاعات متوسطة الحجم، كل قاعة يمكنها استيعاب خمسة وعشرون سجيناً إلى الثلاثين، لكن لكثرة المعتقلين كان يحشر في كل واحدة ما يناهز المائة وثمانون سجيناً، وقد تم تخصيص هذا السجن للموقوفين وفق المادة (٤ إرهاب)، ويُدار من قبل مديرية استخبارات صلاح الدين.

قاموا بتوزيعنا على القاعات الأربعة، بعد إتمام تفتيشنا بشكل دقيق، وأخذ كل أغراضنا، باستثناء الملابس الداخلية المسموح بها، وبدل الملابس أعطونا بدلات قبيحة برتقالية اللون.

انقضت الساعات حزينة، زاد حزنها أنهم أبعدوني عن أخي، كل واحد منا وضعوه في زنزانة، وجوده معي في الفترة الماضية كان يشعرني بالكثير من الراحة.

صار نظري يتجول في القاعة أحاول أن أتأملها، هنا كل شيء كئيب، حتى الجدران كانت مصبوغة بذلك اللون الرمادي الباهت، الذي يدفع النفس إلى الانقباض. وأنا سارح في ما حولي تَقَدَّمَ نحوي مجموعة من السجناء، بعضهم كان معي في سجن سامراء، وقد تم نقلهم قبل أيام من مجيئنا إلى هنا، وبعد التحية، راحوا يحدثوني بهمس عن هذا المكان، قائلين:

- كل شيءً هنا ممنوع يا علي، لقد ندمنا حين كنا فرحين بالخلاص من نقرة سامراء، لم نكن نعلم أننا متجهين إلى هاوية تكريت. فهنا لا تلفاز يشغل بعض يومنا، والسجائر ممنوعة، ولا وجود لشيء من الممكن شراءه، الطعام قليل، والجوع يؤلمنا، والأقسى من ذلك أنهم وفي كل ليلة يقومون بأخذ عشرة أشخاص منا، ليضربوهم بطرق مهينة ومخيفة أمامنا، هذا المكان مرعب، يا علي، مرعب.

في سامراء كانت السكائر ممنوعة، إلا أننا نستطيع إدخالها بالمال، والتلفاز رغم وجوده خارج القاعة، لكن صوته كان يسلينا بعض الشيء، هنا كل الأشياء مراقبة بالكاميرات.. ورغم شعوري بالخوف والرهبة لما قيل، إلا أن الأمل كان يحدوني، فكنت افكر إن مكوثي هنا لن يستمر طويلاً.

تبين لي فيما بعد أن كل شيءً كان كذباً كالمعتاد، فقد بقيت في هذا المكان عاماً ونصف، كان تطبيقاً عملياً، لما كنت اسمع واقرأ عن المعتقلات السرية لنظام صدام حسين.

هبط الليل سريعاً ذلك اليوم، وكانت الفترة الأكثر بشاعة داخل السجن، هي تلك الممتدة بين أول العصر وأخر الليل.

جاء وقت العشاء الذي كنت انتظره، لان الجوع كان قد أضناني، لم يصبني من الطعام إلا قطعة خبز لا تتجاوز نصف كف اليد، مع ملعقة معكرونة مطهوة بشكل سيء جداً، شعرت بجوع قاس تلك الليلة، لكن ما كان يشغلني اكثر، هو كيف يستطيع أن ينام هذا العدد الرهيب من البشر في هذا المكان.

طلب منا المراقب حين حل وقت النوم، أن نستلقي على أكتافنا. ذات الطريقة المتبعة في سجن سامراء، لكن بضغط أكبر، كنت بالكاد أتنفس، حتى خيل ألي صوت قفصي الصدري وهو يتكسر. ومع ذلك بقي العشرات منا دون مكان يناموا فيه. طَلب المراقب منهم التوجه إلى الحمامات الثلاثة الموجودة في نهاية القاعة، والانتظار هناك حتى حلول الصباح، وسيطلب من الضابط السماح لهم بالنوم نهاراً لأنهم كانوا خفراً. وهكذا تمت الأمور في ليلتي الأولى.

الثامنة صباحاً كان موعد الاستيقاظ، ومع إعلان الحرس بصوتٍ جهوري ساعة النهوض، قفزنا واقفين، انتظرت قليلاً ليخف الزحام عن الحمامات، بعد قليل دخل الفطور، وضعوا أمامي قطعة مربى واحدة، اعتقدت أنها لي وحدي، مددت يدي والتقطتها، وبدأت بفتحها، وعندما هممت بوضع كسرت الخبز الصغيرة لأغرف، نبهني تنهد السجناء من حولي، رفعت رأسي فقال مسؤول الحضيرة(محمد العناز) وهو يداري ابتسامة، هذه للجميع.

وقبل أن أمضغ اللقمة الأولى صرخ الحارس، بنفس الصوت الجهوري، مردداً كلمة تعداد كررها مرتين، قفز السجناء وأنا معهم بسرعة بالغة، كمن سمع خبراً عن وفاة احد أفراد عائلته.. بدأوا بالجلوس في طوابير مستقيمة ورؤوسهم إلى الأسفل، صرتُ افعل مثل ما كانوا يفعلون دون أن اسأل، وبعد دقائق دخل الضابط لأجراء التعداد، وأثناء ما كان يردد الأسماء، رفعت رأسي لأرى، وكانت المفاجئة.. الضابط المسؤول عن

الموقف، هو احد أصدقائي أيام الجامعة، وقد تركها ليلتحق بدورة للضباط، وانا أكملت المشوار، سرت قشعريرة في جسدي عندما رأيته، نظرت أليه وأنزلت راسي بسرعة دون أن ابدي أية إشارة.

راودني في تلك الساعة شعور عميق بالعار؛ كوني أقف أمامه هذا الموقف، ومتهم بهذه التهمة الشنيعة، و رغم براءتي لكن أن تتوقف وفق المادة (٤ إرهاب) فهو عار ما بعده عار.

أتذكر جيداً عندما كان صدام حسين يبطش بمعارضيه، ولكي لا يتم التعاطف معهم، كانت التهمة جاهزة، انهم خونة وعملاء، كم هو كبير ذلك الشبه بين اليوم والأمس.

انتهى الضابط من التعداد، ومع وصوله إلى الباب وقبل خروجه، التفت ونادى بإسمي.

نعم، قلتها باحترام.

- فقال: تعال معي.

صحبني معهُ إلى غرفته الخاصة، واضعاً أمامي علبة سكائر وقداحة، قائلاً:

- أعلم يا علي أنك تعاني، لكن هكذا هي القوانين هنا، ولسوء حظك إنني سأغادر اليوم مساءً، لأن كتاب نقلي إلى مكان آخر قد وصل.

اخرج هاتفه، وطلب مني الاتصال بأهلي، وفعلاً اتصلت بزوجتي، كانت المكالمة مقتضبة تبادلنا فيها الاطمئنان عن الأحوال، وأبلغتها بمكان تواجدي وان الأمور جيدة، وأني لن أمكث هنا طويلاً، وسأخرج خلال شهر على اكثر تقدير، أرجعت الهاتف، وأنا أردد عبارات الشكر والعرفان. ثم قال لي ناصحاً:

- أنت بريء يا علي، وسيفرج عنك بالتأكيد. لا تجعل أحداً يساومك على مال، لان ضعاف النفوس متواجدون في كل مكان.

بالتأكيد أستاذ. أجبته بهذه الكلمات.

ابتسم من كلمة أستاذ وسألني:

- هل أنت بحاجة إلى شيء؟

أريد أن يأتي شقيقي معي، في نفس القاعة.

- نعم هذه بسيطة، وهل لديك شيءٌ آخر؟

لا هذا فقط، أشكرك.

- لم افعل لك شيءً.

نهضتُ بعدها طالباً منه العودة إلى السجن، لأني لم ارغب أن يطلبها مني، جاء احد الحراس بعد أن ناداه الضابط، ليرافقني حتى ادخلني الزنزانة، بعد قليل كان شقيقي معي في نفس القاعة، لنبدأ رحلة الألم سويةٍ.

*** * * * ***

في سجن تكريت، كان الخوف مثل الهواء، ينتشرُ في كل مكان، واذا ما أمعنت النظر جيداً ستجده أمامك جلياً، على الجدران والسقوف، وفي وجوه السجناء وعيونهم، وأحياناً تراه متشبثاً بقضبان الزنزانة.. كان الخوف يغلف كل شيء حتى نفوسنا.

في أيامنا الأولى، كنا نسمع صراخ أناس يتعرضون للتعذيب، أصواتهم متألمة، نسمعهم بقلوب وجلة، الظلم يصرخ متعطشا للخلاص، كنا بصمت نتبادل النظرات.. وما زاد الأمور رعباً وهلعاً هو سماع صرخات نسائية، متوسلة، نائحة، مستنجدة. رحتُ أتأمل وجوه المساجين وهي تتقلص مع ارتفاع صرخات النساء، وكأن الألم مسَ أجسادهم، أصبحنا مثل شهود أذلاء نراقب ما يحدث صاغرين، كنتُ مدركاً لما يعتمل في صدورهم، لأن الخائفين يفهمون بعضهم بعضاً.. سألت يومها زميلنا في المعتقل، (شاكر الجنابي) من أهالي الصينية التابعة لقضاء بيجي، كان يخرج من السجن كل صباح ليعود بعد منتصف الليل، و السبب من وراء خروجه هو التنظيف، وعمل الطعام والشاي لضباط المعتقل، مقابل السماح له

بالتدخين والاتصال بالأهل أحياناً، وفور عودة شاكر، تلك الليلة سألته عن صرخات النساء فقال:

- نعم لقد جلبوا ثلاثة نساء للتحقيق.. وأعادوهن إلى سجن النساء في تكريت بعد إكمال التحقيق معهن، وكانت التهمة أنهن عضاضات.

عضاضات؟ قلتها، مستفهماً.

- نعم، نعم، داعشيات، كُن يتجولن في الأسواق، وعندما يشاهدن امرأة مخالفة للزي الذي فرضته داعش يقمنَ بعضها من الكتف، أو من عضد اليد.. وأردف شاكر قائلاً: لكن العقيد وهاب مدير السجن، عندما جاء وشاهد النساء مربوطات على السديات، والأكياس تغطي وجوههن رفض ذلك وانزعج كثيراً، لأنه أبن عشائر كما تعلم.

نعم أعلم، لكن لماذا غضب؟ هل تقصد أنه لا يعلم.

- لا ليس هذا ما قصدت، كُنتُ أقصد أن النساء وأثناء الرفس، جراء خنقهن خرج جزءٌ من أرجلهن، وهنا آمر العقيد وهاب إلباس النساء بناطيل طويلة (بجامة). وقرر منع خنق أي امرأة دون إلباسها ما يستر عورتها.

-٧-

لم تكن عصا ال(بي بي آر) تفارق أيدي الحراس، ولأنها ماسورة مجوفه من الداخل، فأن بعضهم يقوم بغلقها من الجانبين، بعد ملئها بالرمل، وكان ذلك يزيد من قسوة الضربة ووجعها، أما البعض الأخر فكان يحمل الكيبل المجدول: مجموعة من أسلاك تأسيس الكهرباء، تم نسجها سوية إلى أن صارت كأنها ضفيرة فتاة. وكنتُ أرى وجه التشابه بين الضفيرتين، هو العذاب بالنسبة للسجناء.

أصبحنا مُعتادين على إخراج عشرة سجناء في كل ليلة، بطلب من الضابط، وكانت مهمة المراقب هي اختيار هؤلاء العشرة، وفي حال عدم وجود معاقبين يقوم احد الحراس بالدخول ليختار العشرة بنفسه، وفي أحيان كثيرة يخرج (متبرعون للتعذيب).. غالباً كبدلاء عن كبار السن والمرضى، ويكون سبب العقوبة في أغلب الأحيان، هو حديث السجناء في ما بينهم، وكانت العقوبة الأشهر هي الفلقة: يمدد السجين على بطنه، ويقوم برفع قدميه إلى الأعلى، ويبدأ الحراس بالضرب، دون توقف حتى يبدأ الموقوف بالصراخ. هناك معتقلون يشعرون بالخجل من الصراخ والتوسل، وهذا ما سيعرضهم لعشرات الضربات الإضافية، لأن الحارس كان يستمر بالجلد، ولا يتوقف إلا بعد سماع صرخات المعتقل، ساعتها يبتسم مُنتشيًا.

بعد أن ينتهوا من ضربنا على اسفل القدم، تبدأ أقدامنا بالنبض من شدة الألم، ونحنُ على هذا الحال، كان الضابط يأمرنا بالقفز للأعلى لأجل أن يعود الدم إلى جريانه، لأن عدم عودة الدم إلى مجراه سيجعل القدم تسود، ما قد يؤدي لبترها في بعض الحالات، كان منظرنا مضحكاً، ونحن نتقافز مثل كناغر هاربة.

* * * * *

في أحدى ليالي الشتاء الباردة، دخل علينا أحد الضباط المرعبين، كانت رقابنا تشرئب ذعراً عند مقدمه، كان برتبة "رائد" وهو من أهالي تكريت، لأن كثيراً من المعتقلين تعرفوا عليه، وبمجرد أن وطئت قدماه مدخل المعتقل، صرخ بصوت أجفلنا:

- زاوية.

لم أكن أعرف ما يريد، وماذا يقصد بكلمة "زاوية" إلا أن السجناء تحركوا كالبرق إلى زاوية المعتقل البعيدة، وفعلت أنا مثل ما فعلوا. وعندما وصلت ركن القاعة، كان جبل من المعتقلين قد أكتمل، أشاهدهم

وهُم يصارعون، ليكونوا داخل هذا الجبل اللحمي المتكون من أجسادنا، تصور الرعب الذي يجعل مائة وثمانين سجيناً، يتكومون في زاوية! كنا كالقطط يتسلق بعضنا فوق بعض، إلى أن لامس الجبل سقف القاعة المرتفع، وأثناء محاولاتي أن أدخل إلى الداخل كما يفعلون، لكي أقلل من عدد ما سوف يصيبني من ضربات.. تقدم الضابط المخيف، كان ضخم البنية، ذو شارب أشقر طويل، وجهه محتقن مشرب بحمرة الغضب، من عينيه يتطاير الشرر، وفي يديه السمينتين كأنه محارب من الساموراي يحمل كابلاً أسود، فتحتا أنفه تتسعان وتنكمشان، يُخرج منهما الهواء بسرعة، ليُزيد من خوفنا، الكلمات تخرج من فمه مثل كاغد سنفرة، أسمع معها صرير أسنانه.

دخل معه اثنان من الحراس ليساعداه، نظراتهم تشعُ لهباً، اقتربوا منا أكثر، الضابط مستمر بفتح قبضات يديه وأغلاقها، يفتحها ويغلقها، مبللاً شفتيه بلسانه، وكأنه يريد تمزيقنا، وفور أن اصبحوا بجانبنا، بدأت "الكابلات" تنهال على تل المعتقلين، كان الجميع يصرخ سواء أصابتهم الضربة، أم لم تصبهم، كان نصيبي من ذلك عدد من الضربات، لسعتني على فخذي ويدي وواحده على ظهري، نمت على أثر ذلك متألماً تلك الليلة.

لم أكن أفهم سر السعادة، التي تنتاب الضباط، حين نُشعرهم أننا نخافهم، كنت أراهم يتبارون في أن يكون الواحد منهم هو الأكثر إخافة لنا من غيره، وحين يدخل علينا أحدهم، يبدأ بتخشين صوته أثناء الكلام، كانوا كلهم يتكلمون بنفس الطريقة، عند رؤيتهم نأخذ دور ساكني القبور في صمتنا، نبالغ في إظهار خوفنا لهم، نُعجب بأي كلمة يقولها الضابط، وكأنه تكلم في موضوعات فلسفيه لم يتطرق لها غيره، واذا ما تفوه بشيء يعتقد انه مضحك، كنا نرفع أصواتنا بالقهقهة، رغم تفاهة النكتة.. لا أعرف لماذا يعتقد العراقي، أن البطولة تكمن في تخويف الأخرين! وفي الحقيقة نحن لا نخاف ألا من الظالم، لأننا نحاول تجنب شره، أي أنك إذا ما أدركت أن الأخرين يخافونك، فأعلم انك ظالمٌ وغدار.

التاريخ أرواح جامدة، نحرر منها من نشاء ومتى نشاء، نستدعي الجميلين في زمن الجمال، والمتوحشين في الزمن المتوحش، وبالتالي من يتكاثرون هم أولئك الذين نجلهم.

كانت طرق التعذيب تتنوع مع تنوع الضباط، البعض يتخذ الأذلال طريقة. فيختار بعض المعتقلين ويأمر بحلق شواربهم، كان حلق الشارب بالنسبة للمعتقلين إذلالاً كبيراً، لا اعرف ما السبب وراء ذلك، إلا أننا على ما يبدو اعتدنا تقديس الكثير من الأشياء دون معرفة سبب لذلك، خصوصًا تلك المتوارثة، ذلك أن قدسية الأشياء تتزايد بالتقادم.. وما أن يفرغ من حلق الشوارب، حتى يخلع نعله، ويقوم بغمسه بماء المراحيض الآسنة، ويبدأ بضرب المعتقلين على وجوههم، مستهدفاً أفواههم تحديدًا. وهناك ضباط تكمن متعتهم في جعل المعتقلين يقلدون أصوات الحيوانات، كالكلاب والحمير.

حتى يوم التشميس، الذي كان ممتعًا في سجن سامراء، أصبح هنا يوماً أسود.. فقبل الخروج كان لزاماً علينا أن نخلع بدلاتنا، ماعدا السروال الداخلي القصير(اللباس)، وحين نبدأ بالخروج واحداً تلو الآخر، كان يتربص بنا اثنان أو ثلاثة من الضباط والحرس، حاملين بأيديهم البي بي ار، والكابلات المجدولة، وعند رؤيتهم ننطلق راكضين بأقصى سرعة، من أجل تفادي الضربات، لكنهم كانوا اكثر مكراً منا، حيث صاروا يقفون في استدارة نهاية الممر، كانت الاستدارة حادة جداً، وهذا ما يجبرنا على تخفيف سرعتنا، وفور تخفيف السرعة تبدأ صوندات البي بي آر والكابلات بالانهيال علينا، لتطال كل أنحاء الجسد، نحاول توقي الضربات بأيدينا، لكن أيدينا كانت تتدلى مع أول اختبار. وما إزال اذكر جيداً، ذلك المعتقل وأسمه عدي، عندما سأله الضابط الذي قام بكسر يده.

- كيف كُسرت يدك؟

فأجابه عدي بسرعة، أبهرتنا مثل تلميذ مجتهد:

- سيدي، لقد انزلقتُ في الحمام.

استغربنا من بديهيته العالية. إنه الخوف، الذي يجعل مخيلة الإنسان واسعة، رد عليه الضابط مبتسماً:

- عفيه!

في اليوم التالي أصبحت يد عدي مخيفة ومتورمة، نقلوه على آثر ذلك إلى المستشفى، فعاد وقد لُفت يده بجبيرة، وعلقة بحبل إلى رقبته، فسألته:

هل أخبرت الطبيب بحقيقة ما حل بيدك؟

رد ساخراً من السؤال:

- الطبيب.. قال للضباط بأن عليهم قتلنا لا علاجنا، نحن فقط من نعتقد إننا مظلومين يا علي، انهم هددوني بكسر يدي الثانية اذا ما تكلمت.

لم يكن ضربنا يقتصر على ضباط السجن، ففي بعض الأحيان يأتون ضباط أو منتسبين من أماكن أخرى، لغرض التفتيش أو أداء عملٍ ما، وحين مشاهدتنا نضرب، كانوا يشاركون في ضربنا، وكأنها عدوى أصابتهم، أو هو عمل وطني يجب أن يمارسهُ الجميع بشهامة.

رغم كل ذلك، كانت هذه الأنواع من التعذيب والأذلال يمكن تحملها، لأن ألمها ينتهي بعد ساعة أو أكثر قليلاً.. وأتحدث عن الألم الجسدي طبعاً، أما النفسي فلا يمكن تقديره.. لكن ما يرعب السجناء حقاً، هي الزيارات الدائمة للقنوات الفضائية إلى المعتقل.. لأنها تجعل السجناء في حالة جنونية، كأن هوساً مسهم.. كان الضباط يختارون عددًا من المعتقلين للظهور أمام شاشة التلفاز، للتحدث عن ممارسة الشذوذ الجنسي، الحاصلة بين أفراد التنظيمات الإرهابية، كنتُ أرى الأمر مضحكاً، وكأن أعمالهم من قتل وحرق وتخريب لا تكفي لتشويه صورتهم.

كان بعض السجناء عندما يطلق سراحهم، وسبق أن ظهروا على التلفاز، لا يستطيعون العودة إلى مناطقهم، وذويهم، لأنهم في هذا الظهور قد الحقوا العار بأسرهم. كنت أشعر أن عقوبة الإعدام، هي أهون على المعتقلين من زيارة القنوات الفضائية، أراهم يعودون وعيونهم لا تتوقف

عن سكب الدمع، لأنهم أجبروا على الحديث عن ممارسة جنسية محرمة أمام التلفاز.

أتأمل ما يجري أمامي، محاولاً أن افهم، لماذا تمارس هذه القسوة، وبهذا الشكل البشع، خصوصاً وإن الضباط والحراس، ينتمون إلى ذات المناطق، والطوائف التي ينتمي لها غالبية المعتقلين، لماذا يكون الصراع الداخلي أكثر فتكاً وبشاعة؟ المسلمون كان قتلهم لبعضهم البعض اكثر بكثير من قتلهم للديانات الأخرى، والمسيحيون كذلك.

-٨-

من الأشياء التي تغذي صبرنا، ونحنُ نكابد الألم في هذا المكان الموحش.. هي زيارة أهالينا.. كنا ننتظرها بشغف وأمل، رغم أنها تتاح لنا كل خمسة عشر يوماً، ولم تكن تتجاوز الخمسُ دقائق، وفي أحيان كثيرة كانت مواجهة الأهل تلغى لسبب ما فيعود الأهالي أدراجهم خالي الوفاض من رؤية أبنائهم، فتصبح الزيارة شهرية.

يضعونا في قفص مستطيل معد لهذه الزيارة، ليأتي الأهالي من خلف السياج، ذو الفتحات المربعة الصغيرة جداً، التي لا تكفي حتى لنفاذ الأصبع الصغير.. أراقب الأمهات الملتحفات بالسواد، وهُنَ يبكين و ينتحبن على حال أولادهن، كان مشهداً يدمي القلب.

وجهُ أمي هو أول ما أرى، يطلُ جميلاً، نقيًا مثل ماء الصخور، عندما تلمحني يزداد وجهها اللؤلؤي إشراقاً.. كانت تأتي إلي بخطى أثقلتها سنين عمرها السبعين.. زوجتي وبمجرد رؤيتي من بعيد تبدأ بسحب أمي لتُعجلها، وفي بعض الأحيان تتركها وتنطلق راكضة، كأني طفلها.. أمي

تحاول اللحاق بها، والوصول ألي، لكن دون جدوى، كانت تمشي مثل بطريق فرغ تواً من وجبة طعام شديدة الدسم.

الدموع هي أول ما نستقبل بها بعضنا البعض، كان الدمع المتحدث الأول قبل حناجرنا.

كنتُ انتظرهم، ليخففوا عني ألمي الذي أعيش، لكن حين أرى آلمهم، يتضاءل ألمي أمامهم، وأبدأ أنا بالتخفيف عنهم، كان الحديث يدور بيننا هو ذاته في كل زيارة "موعد الأفراج قريب، قريب جدًا " كنت أهز لهم رأسي لكي لا يشعروا بمعاناتي، سألتني أمي وزوجتي ذات مرة:

- هل فعلاً يقومون بضربكم؟ هكذا سمعنا

لا، أجبتهم.

- قالت أمي: لكن هناك سجين خرج، قبل أسبوع من هذا السجن، وقال انهم يقومون بضربكم يوميًا.

نعم يضربون البعض، أما أنا فلا.

كنا نتجنب قول الحقيقة لذوينا، لأسباب عديدة، أولها أننا لا نريد زيادة الكدر الذي يملئ قلوبهم أصلاً، كما أنهم وأن عرفوا فلن يستطيعوا فعل شيء، لأنهم على دراية، في حال تجرؤوا وتحدثوا بهذا الشأن، فإن ذلك سيزيد من سوء معاملتنا وتعذيبنا، لأننا بذلك نكون قد قلنا ما لا يرغبون بإفشائه.

لم أكن أنتظر الاطمئنان على أهلي فحسب. ولكن ما يهمني أيضاً هي الرسائل القادمة، كونها وسيلة التواصل الوحيدة مع العالم الخارجي.. كان أخذ الرسائل من أهلي، و إدخالها إلى السجن مخاطرة لا تحمد عقباها، و زوجتي مدركة لذلك، فكانت تقوم برص الأوراق جيداً، حتى يصبح حجمها ضئيلاً جداً، حيث يمكن وضعها في الفم أو ابتلاعها أن تطلب الأمر ذلك، كنت أنا أيضًا أكتب لزوجتي لا الرسائل الغرامية وحسب، وإنما كل ما يجري، خلف جدران المعتقل، أدون مشاهداتي اليومية على شكل ملاحظات، ورغم أن الأوراق والأقلام كانت ممنوعة،

ألا اني كنت استعين بقلم المراقب، وهو الشخص الذي يمتلك القلم الوحيد في القاعة، حيث يَسمح له الضابط بذلك، لغرض تسجيل كل ما يقوم به السجناء، من كلام وأفعال، لهذا كنا في كثير من الأحيان نتهامس بدل الكلام، وما أن نسمع احد الحراس، وهو يضرب قضبان السجن بكيبله المجدول حتى نقطع أنفاسنا، صرنا مروضين مثل حيوانات سيرك.

ولأني أجيد القراءة والكتابة بشكل جيد، طلب مني المراقب ذات مرة أن اكتب رسالة إلى أمه، بعد أن حذرني كثيراً من إفشاء السر، فوجدتها فرصة جيدة لأقوم بالكتابة لنا نحنُ الأثنين.. أما في اللحظات الكثيرة التي لا أجد فيها قلماً، كُنت استخدم عصارات العلاج الفارغة، فأقوم بإزالة طلائها الخارجي، إلى أن أصل إلى الجزء المعدني، وبعد برمه جيداً أبدأ بالكتابة، كان يترك لوناً يشبه لون قلم الرصاص، بشرط أن يكون الورق اسمرًا أو كارتوني، لأتمكن من استخدامه للكتابة.. وهذا هو السبب في استخدام أغلفة علب الجبن، المُحتفظ بها من قبل المراقب، لتسجيل أسماء المعاقبين، أو أدوارنا في دخول الحمام، أو الحلاقة، وبعد الانتهاء من كتابة ما أريد أقوم بقشط الغلاف الكارتوني، لتصبح شديدة النحافة وهذا ما يجعل من السهل طيها وإخفائها.

كانت زيارة الأهل لا تنتهي دون منغصات، فبالإضافة لمنظر الأطفال وهم يطالبون أباءهم بالمجيء معهم، أحدهم عندما شاهد أبوه، الذي كان يقف بجانبي داخل القفص وهو حافي القدمين، قام بنزع حذائه ذو الأضواء الصغيرة الملونة، وبدأ محاولاً إدخاله من الفتحات الصغيرة، لكن دون جدوى ذهبت محاولاته.

كنا نرى بوجع محاولات خسيسة من بعض الحراس، للتقرب من عوائل المعتقلين لأغراض دنيئة طبعاً، من خلال المساومة، حيث يعدونهم بالاهتمام بابنهم السجين مقابل أخذ أرقام الهواتف، وكانت الفتيات الجميلات هُنَ الأكثر عرضة لهذه المضايقات.. وما إن يبدأ الحراس أو الضباط بالاهتمام بأحد السجناء، والسماح له بالخروج أو بالاتصال بعائلته، أو توفير الطعام الجيد له، حتى يبدأ باقي السجناء بالنمّ، ونسج الأحاديث من خيوط أخيلتهم.

* * * * *

مضي عامٌ ونصف على اعتقالي، وما يقارب السبعة اشهر على وجودي هنا في سجن تكريت، حين بدأ الوضع الأمني للمدينة التي يقع فيها المعتقل بالتحسن، مما سمح للقاضي بزيارة المعتقل بشكل منتظم، وقد جاءنا مرتين أو ثلاثة، كان يستفسر عن أوضاعنا، طعامنا، احتياجاتنا، ولأن احد الضباط، كان يرافق القاضي دائماً، كنا نضطر إلى القول بأن كل شيء على ما يرام، وأن الطعام كافي والضباط يعاملوننا بمنتهى اللطف والإنسانية.

كان أمراً طبيعياً أن ننافق، فما إن يسود الخوف، سيكون النفاق هو النتيجة الحتمية.. إلا إنه ومن حسن حظنا، وسوء حظه، كان هنالك معتقل لم يمضِ على تواجده سوى يوم واحد، ولم يكن يدرك بعد ما ينتظره في حال تكلم، بكلمة واحدة تخالف ما يريده القائمون على المعتقل، فقال للقاضي:

- أنا جائع منذ الأمس يا سيادة القاضي، لان الطعام هنا قليل جداً.

التفت القاضي نحونا، ليسألنا قائلاً:

- هل يكفيكم الطعام؟

سكتنا جميعاً، مطأطئين رؤوسنا نحو الأرض، إلا أن اثنين من السجناء، ممن كانوا يتبارون في سبيل كسب رضا الضباط، نهضوا و قالوا:

- الطعام جيد، سيدي القاضي، ووفير.

فَهم القاضي الحقيقة، طالباً منهم الجلوس بإشارة من يده، وفور خروجه تلقى صاحبنا المعترض على الجوع وقلة الطعام، عدداً من الضربات، كانت كفيلة بإشباعه.

بعد هذه الحادثة بدأ الطعام يزداد كماً وليس نوعاً، وهذا أقصى ما كنّا نتمنى، توالت بعد ذلك الزيارات وكانت أحداها لمنظمة الصليب الأحمر.

ذلك الصباح ايقظونا قبل الموعد بقليل، وادخلوا لنا فطوراً معتبراً، جبن من النوع الجيد، مع صمون كان لايزال دافئاً، بعدها طالبونا بغسل القاعة جيداً، وتعقيم الحمامات، لأن منظمة دولية ستزور المعتقل.

مثل هذه الزيارات كانت تُفرحنا.. ليس لأننا نعتقد أن أمراً إيجابياً سيحدث، لكن لأنها ستكسر رتابة الأيام المتكررة في السجن، وبالفعل قاموا بزيارتنا صباحاً بعد الإفطار بقليل.

كان عددهم الإجمالي ثمانية أشخاص، ثلاث نساء وخمسة رجال، توزعوا مباشرة على القاعات، اثنان لكل قاعة، وفور دخولهم إلى قاعتنا طلبوا من الضباط، والحرس بذكائهم المعهود أن يتركوهم مع المعتقلين لوحدهم. أراد احد الضباط ثنيهم عن ذلك، مبرراً لهم أن بين هؤلاء مجرمين خطرين، وترككم معهم مجازفة غير مأمونة العواقب، فرد عليه أحد أفراد المنظمة، وكان لبناني الجنسية:

- أرجوك، نفذ لنا هذه الرغبة، ونحن من يتحمل تبعات ما سيحدث.

فأنسحب الضابط والحرس بهدوء.

جلس أعضاء المنظمة بيننا، وكأنهم معتقلون مثلنا، وسرعان ما تفاعلنا معهم، وصرنا نمزح مثل أصدقاء، سألناهم اكثر مما سألونا. كانت ترافق المتطوع اللبناني فتاة مصرية بملامح أوربية تدعى بسند من أقباط مصر، كانت ترتدي حجاب الرأس بطريقة مضحكة، متماشية مع العادات والتقاليد الإسلامية، وقد تجمع حول بسند غالبية السجناء، موجهين لها العشرات من الأسئلة، عن مصر و فنانيها الذين كانوا يعرفونهم جيداً، خرجت اللجنة، بعد ساعات ومعها عشرات الشهادات عن التعذيب والأذلال، وظروف الاعتقال المرعبة، وقبل الخروج أخذت الشاب اللبناني جانباً، شاكراً لهُ وللمنظمة التي كان لها المئات من المواقف الإنسانية

منذ تأسيسها على يد هنري دونان، وتكلمت أليه بشكل مقتضب عن أهم مواقف هذه المنظمة، فقال بوجهه الضحوك:

- إن معلوماتك عنا جيدة.

ابتسمت معبراً عن مودة، وقلت:

أين ستذهب بهذه الشهادات؟ وهل سجلت أسماء المعتقلين؟

- لقد رمزت بالأحرف الأولى على الشهادات التي أدلى بها المعتقلين، بناءً على طلبهم خوفاً من الانتقام، وسأقوم باطلاع مدير الموقف على هذا.

المدير يعلم بكل شيء، فما الداعي من هذا؟

- إذاً سوف أوصلها إلى المسؤولين في بغداد، وحتى إلى وزير الداخلية يمكننا الوصول.

قاطعته قائلا:

والرأي العام؟

- تقصد الإعلام؟

نعم.

- من المؤسف إننا لا نستطيع اطلاع الإعلام على ذلك، فنحن ملتزمون بمعاهدات مع الحكومة العراقية، تمنعنا من إخراج مستندات ووثائق كهذه للإعلام.

هل تعلم أن غالبية هؤلاء المعتقلين متأخرين هنا منذ سنوات؛ بسبب كتاب أو توقيع من الجهات المسؤولة؟

- نعم أعلم، لكن نحن لسنا موكلين بالأمور القضائية كما تعلم، وأن محور عملنا يتركز على احتياجات المعتقل، وظروف الاعتقال، ونقلها إلى الجهات العليا، كما يمكن أن نساعد في توفير بعض الأشياء.

حسناً لا بأس بذلك أيضاً، هكذا قلت وأضفت هنا لا تتوفر أي وسيلة لقضاء الوقت، حتى الكلام ممنوع، والألعاب التي صنعناها سراً بأغلفة الجبن وبقايا الصمون سحبت منا، هل من الممكن مثلاً توفير مذياع؟ حتى إذا تم وضعه في مكان خارج الزنزانة سيكون صوته كافياً.

- سنحاول،

أعتذر إن أطلت وأكثرت في الطلبات، لكن هل بإمكانكم توفير بعض الكتب؟

نظر ألي مبتسماً، وقال:

- هل تقرأ الكتب؟

بالتأكيد.

- اعطني أسماء كتبك المفضلة، وسوف أبذل قصارى جهدي لتحقيق هذا الطلب.

بعد دقائق، كان عدد الكتب المسجلة قد تجاوز الخمسين كتاباً، ركزت وأنا أدون أسماء الكتب على الضخمة منها، ذات الأوراق الكثيرة كونها تتماشى مع الفراغ الكبير الذي نعانيه في المعتقل، لهذا اخترت روايات دوستويفسكي الأثير إلى قلبي، ومعها كتب لتولستوي، ماركيز، دان براون، فيكتور هيغو، وديوان المتنبي.. كان لكل واحد منهم حصة في القائمة، شكرته على كل شيء حتى وإن لم ينفذ طلبي، شكرته فقط لأننا نشعر بالسعادة حين يتم التعامل معنا على أننا بشر، وإن أمثال هؤلاء هم من يعلقوا بالذاكرة، لا أولئك الذين يسجلون ذكرياتهم في عقولنا بتعذيبنا، وإرهابنا.. بعدها وزعوا علينا البسة داخلية جلبوها معهم، ورحلوا.

بعد ذهابهم طلب الضابط من مراقب كل زنزانة، إخراج الأشخاص الذين تحدثوا مع أعضاء لجنة الصليب الأحمر، ليتم اختيار خمسة عشر شخصاً إلى عشرين من كل قاعة، لحسن حظي لم اكن بينهم، ذلك لأن علاقتي جيدة مع مراقب الزنزانة، الذي يتجنب أن يكون سبباً في إهانتي، إلا في حالات الضرب الجماعي.

لم تتغير الأمور بعد زيارة الصليب الأحمر. كان المسؤولون في السجن يسخرون من قضايا حقوق الإنسان، ويجدونها مجرد وعود تمنح دون تنفيذ.

وضعت ذراعي خلف رأسي أتأمل ذلك السقف القبيح، أفكر هل حقاً سيأتون بالكتب.

في الزنزانة لا يوجد كتاب ألا القرآن، وقد سُمح بنسخة واحدة لكل عشرة سجناء نتناوب على قراءتها بالدور، وقد حصل ذلك مع حلول شهر رمضان، حتى من لا يجيد القراءة كان بإمكانه أن يحرك أصبعه على الكلمات، ويحصل على الأجر والثواب، بحسب أحدى الفتاوى المتداولة، كان المصحف عزاءً للمعتقلين.

رمضان شهرٌ ممتع، عندما تكون بين عائلتك وأحبائك، لكن هنا جاء ليضاعف حزننا، كانت أيامه تمرُ علينا أليمة مهيجة للذكريات.. رغم أن الضباط لا يضربونا في هذا الشهر كونهم صيام، حتى المعاقبين يتم تأجيل ضربهم إلى ما بعد الإفطار.

وفي آخر يوم من رمضان، وفور إعلان أن غداً هو أول أيام العيد، يبدأ بكاء المعتقلين ونواحهم بالارتفاع، فتسمع بين لحظة وأخرى أحدهم وقد أنفجر باكياً، كانوا مثل براكين تتقد في جوفها الأحزان، تنشط بالتتابع، أشاهد بعضهم يرفع البطانية فوق رأسه، لكي لا نراه حتى تتحول القاعة إلى أنين مستمر، وكأنك وسط نسوة فقدن شقيقهن الوحيد.

كان بعض السجناء لا يكتفون بالنحيب. بل يطورون الحزن ويأخذوه إلى مديات أكثر وجعاً.. يقظان شاب في أواخر العشرين من عمره، أضافة لبكائه الأزلي كان يقدم لنا عرضاً حزيناً، (مونولوج) فيبدأ بتذكر أيام العيد مع أطفاله الثلاثة، ليقوم بوصف اللحظات معهم، وهو مواظب على العويل فيقول.

- يتجمعون حولي.. أدغدغهم من جوانب بطنهم.. من أسفل أقدامهم، حتى يختنقون من الضحك.. يا حبايبي هل تعلمون أين أنا الأن، هل

تتذكرون كيف أغني لكم ويبدأ بالنشيج، بصوت متكسر (أنا البندورة الحمرة.. مزروعة بين الخضرا) (هالصيصان.. شو حلوين)

مشهد دموعه المنهمرة، وهو مستمر بالغناء كان يجعلنا، نذرف الدمع بلا أدراك.

وسط هذا الكمد، كان هناك من يخفف علينا ألمنا وقهرنا، ومنهم أبو ناظم الشخصية المحبوبة والجدلية في الزنزانة، كان ضابطاً برتبه كبيرة في الجيش العراقي الذي تم حله بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، رأسه اصلع تماماً ما عدى نتف قليلة من الشعر خلف أذنيه. كان طيب القلب، لكنه فظ اللسان، يُعرف نفسه على أنه آخر المتصوفين، حفيد الحلاج، المجدد.. في كل يوم يضفي على نفسه لقباً جديداً. بدأ أبو ناظم وبسبب ظروف الاعتقال يشكك في كل شيء. أراه كلما قرأ القرآن يذهب إلى رجل الدين الوحيد في القاعة (الشيخ أنور) حاملاً معهُ بعض التساؤلات، كان الشيخ يبتسم لأنه يعلم أن أبو ناظم يُريد استفزازه، يثير تساؤلات كثيرة مثل هل الله كتب لنا ساعة محددة نخرج بها من هنا؟ فيقول له الشيخ أنور:

- نعم.

- إذاً لماذا ندعوا الله بأن يخرجنا، وندفع الأموال للمحامين، هل سيغير الله رأيه مثلاً؟

- يجب أن نأخذ بالأسباب يا أبا ناظم، هكذا يُجيب الشيخ أنور.

ورغم الذهنية المتفتحة التي يتمتع بها الشيخ أنور، إلا أن هذا النوع من الأسئلة يثير امتعاضه، فكان يطلب من أبا ناظم أن لا يتكلم بهذه الطريقة، لكن الأخير لا يتوقف، ليعود بعد أيام ويطالب الشيخ بأن يفسر له لماذا حرم الله الخمر والميسر، فيجيبه الشيخ أنور:

- لأن اثنين من صحابة الرسول، تشاجروا بسببه.

فيرد أبو ناظم بسؤال كان قد حضر له مسبقاً، فهو يعلم السبب لوجود تفسيرات على هامش أوراق المصحف، فيقول:

- لماذا يتدخل الله في أمور أقل أهمية، من الفظائع والمظالم التي يعيشها الإنسان اليوم؟ وينسحب قبل أن يتلقى رداً من الشيخ أنور.

كثيراً ما كان يأتي للجلوس بقربي، قائلاً:

- أنظر ماذا فعلت بهم.

فأقول له، أتركهم يا أبا ناظم، من الطبيعي أن يتدين المعتقل لأنه فقد الأمل في العدالة على الأرض، فراح يبحث عنها في السماء، وكما يقول ماركس (الدين هو زفرة المخلوق المضطهد، وهو بمثابة القلب في عالم بلا قلب، والروح في أوضاع خلت من الروح) لاتكن شاذاً عنهم سوف يتعبوك.

- خمسة أعوام وأنا من معتقل إلى أخر سحقتني تماماً يا علي، كُنت قبلها مؤمناً أصلي بقلب تملئه الطمأنينة، ولم أكن أفوت منقبة نبوية من تلك التي تقام مساء كل خميس في مدينتي بيجي، وأعتقد أنني لا أزال صوفياً إلى حدً كبير.. الشك كالحب يا علي، إذا بدأ فلن يتوقف وان صلاة الحركات هي صلاة البسطاء، وإذا ما ازداد الإنسان وعياً، يجب أن تتطور علاقته مع الله، فليس من المعقول أن يفني الإنسان حياته بنفس الحركات، يجب أن نتواصل بالفكر، بالحب، بالفن، وهذا بالضبط ما حصل معي.

- أما بالنسبة لأفكاري الشاذة، فأنا أرى أن الاندماج بهذا المجتمع هو الشذوذ بعينه، هذا مجتمع مريض يا علي أنظر كيف يبيع أحدهم الأخر لأجل سيجارة، أنظر إلى الصدق المفقود، العدالة الغائبة، الحرية المؤجلة، والحب المغشوش، أنه مجتمع ميت قيمياً.

كان أبو ناظم ينام بقربي، وفوق رأسه توجد أحدى النوافذ الثلاثة للمعتقل، كانت مربعة الشكل بلا زجاج مجرد قضبان حديدية متشابكة، حتى ضوء الشمس يخاف الدخول، فتتسلل منهُ شظايا، تذكرنا أن هناك مازال ضوءٌ ينتظرنا.. كان السجناء يأتون كل يوم ليقفوا تحت هذه

النافذة، يُقربون كفوفهم نحوها يدعون الله من خلالها.. أسمع أحدهم (بسام الزبن) يتكلم مع الله بنبرة عتاب فيقول.

- قضيت عمري اصلي لك، أصوم لك، وأطيع أوامرك، الأن أنا بحاجة لك أذا لم تقف معي الأن فمتى.

كان مجيء هؤلاء السجناء فوق رأس أبو ناظم يدفعه للهيجان، خصوصاً اذا أسقط أحدهم قطرة ماء على جسده أو فراشه، ساعتها يبدأ بالصراخ قائلاً:

- هل الله موجود هنا فقط، فوق رأسي.

وعندما يبدأ صوته بالارتفاع، كانوا يهرولون هاربين.

كانت أحدى آراء الشيخ أنور التي تحادثنا بها يوماً، أن الدين ضروري لكي لا يقتل احدنا الأخر، ولا يسرق احدنا الأخر، ولا يكذب احدنا على الأخر، ولا يظلم احدنا الأخر، كنت غالباً ما أقاطعه قائلاً:

لكن يا شيخ الذي أراه هو العكس، فكلما ازداد التدين في مكان، باتت هذه الأشياء في تزايد.

-٩-

بين سجن سامراء وسجن تكريت أتممت عامي الثاني، تحولت خلالها إلى شخص تعود الخوف وألف الذل، أما الكرامة فالحديث عنها أصبح يثير الضحك.

دفعني ذلك للتفكير بجدية في الانتحار، ولأكثر من مرة رسمت في مخيلتي خطة لذلك.. وكانت الفكرة تقتضي بأن أقوم بتبليل جسدي، بالماء مع كامل ما أرتدي من ملابس، وأمسكُ بعدها سلك الكابل المغذي لمصباح الحمام كونه بعيداً عن الكاميرات.. واخترت ساعة التنفيذ ليلاً لأن القوانين هنا تمنع دخول أكثر من شخص إلى الحمامات في هذا الوقت، لكني وفي كل مرة كنت أتراجع، ما إن يقترب موعد تنفيذ خطتي، وأبدأ أردد في سري، أنني لن أقتل نفسي فقط، أذا ما أقدمت على الانتحار، هناك أمي، وشقيقاتي وزوجتي وابنتي أيضا، سوف يعانون من بعدي. كنتُ مدركاً أنها مجرد تبريرات لحقيقة أكبر، هي أن من يقدم على هذه الفعلة هم الشجعان، الذين أدركوا أن الحياة لا تستحق أن تعاش وانا لم اكن منهم.

بعد شهرين من الزيارة الأولى لمنظمة الصليب الأحمر جاءوا مجدداً، كنت قد نسيتُ موضوع الكتب، حتى أني حين طلبتها لم أكن متأكداً من أنها ستأتي، لكن بعد أن نادى أحد الحراس على المراقب، عاد الأخير وهو يحمل مجموعة من الكتب، غمرتني سعادة كبيرة حين رأيتها، وازدادت فرحتي حين ناداني المراقب قائلاً:

- هذه الكتب أنت المسؤول عنها.

وافقت دون تفكير، وقمت فوراً بوضعها قربي، بجانب رأسي، ورحت أتصفحها، أقلب أوراقها التي اشتقت لعبيرها، لم أكن أعرف أي كتاب سأختاره لكي أبدأ بقراءته، ورغم إن العناوين لم تكن جميعها متطابقة مع ما طلبت، إلا أن ذلك لم يقلل من سعادتي.. كان عددها أربعين كتاباً، علمت فيما بعد أن عدداً مشابها قد وصل للقاعات الأخرى، في هذه

اللحظة فكرت أن أدخل المزيد من الكتب، لأن العملية أصبحت ممكنة، وفعلاً نجحت في أدخال عشرات الكتب، عن طريق أحد الحراس، كنت أقول أن هذه الكتب جاءت بها المنظمة، الأهم أن لا يكون بينها كتاب ديني.. نجحت في إدخال كتب في الفلسفة والاقتصاد، وعلم الاجتماع، إضافة إلى سير ذاتية كنت أحبها كثيراً، لشاري شابلن وعزيز نيسين ونيرودا، وغالبية مسرحيات شكسبير، كان الوقت طويلاً جداً مما أتاح لي قراءة كل كتاب مرتين أو ثلاثة على الأقل.

أصبح الكثير من الموقوفين، خصوصاً من لا يجيدون القراءة، يأتون للجلوس حولي حين يجدوني اقرأ، وحينما انهي قراءتي أحدثهم عما قرأته، وهذا كان سبباً لتقربهم مني فيما بعد وثقتهم بي أكثر، حتى انهم صاروا يحدثوني عن قصصهم، كنت اشعر بالسعادة لأنهم يشاركوني أوجاعهم.. وقد نجحت في الكثير من المرات بالتخفيف من آلامهم، ولأني معتقل منذ عامين أصبحتُ على دراية بالقضايا أو هكذا أعتقد، وهذا ما جعل السجناء يطمئنون أكثر للحديث معي، ويسألوني عن قضاياهم، لكني كنتُ أرى السبب الأهم الذي يدفعهم للبوح، هو الأمل الزائف الذي أمنحه لهم، حيث كنتُ أجتهد في إيجاد ثغرة في قضية المتكلم، لأقوم بتوسيعها، لأصل إلى نتيجة مفادها أن قضيته بسيطة، ولا تستدعي الخوف.

السجناء لا يريدون سماع الحقيقة، بل يريدون الأمل، واذا ما تكلمت مع أحدهم بالحقيقة، وأن هناك احتمال كبير أنك ستحكم، ساعتها سيقاطعك ويمقتك بشدة، لأنه يعتقد أن هذه أمنيتك.

أما أنا فلم يكن بإمكان احد أن يخفف من ألمي، ويرفع معنوياتي سواي أنا.. أسلي حالي وأقلل من حزني بتخيل حياتي ما بعد السجن، حيث أقول في نفسي إنني سوف أهاجر فور الخروج من هنا، ورحتُ أسافر في كل يوم إلى بلدٍ جديد وانا بين أربعة جدران.

كانت قصص المعتقلين أكثر تأثيرا في النفس، واكثر عمقاً و صدقاً مما كتب في هذه الكتب.. ومن بين القصص التي يتعذر علي نسيانها، هي قصة فرحان، الباكي دائماً، كان ذا بشرة شديدة السمرة، ووجه ممتلئ

بالحفر الصغيرة، أما أسنانه الأمامية فكانت بارزة بوضوح إلى الأمام.. حيث قال لي يومًا:

- هل تذكر يا علي يوم الجمعة الماضية، عندما عدت من مقابلة أهلي باكياً وسألتني عن ما يبكيني؟ فقلت لك ساعتها لا يوجد شيء.

نعم، أتذكر.

- كانت طليقتي هي من قابلتني، هل تصدق يا علي أنها و فور سماعها بأني مسجون قامت ببيع أساورها الذهبية، وهذا كل ما تملك، وقد أعطت ما حصلت عليه من مال إلى المحامي ليتابع قضيتي.

إذاً لماذا طلقتها يا فرحان، إذا كانت نبيلة بهذا الشكل؟

- الشك يا علي، عندما يتسلل إلى الإنسان يحوله إلى رماد.

وكيف تسلل الشك إلى داخلك؟

- اسمع، كانت هذه الفتاة تسكن في نفس القرية حيث اسكن (قرية النمل) وقد أحببتها منذُ رأيتها أول مرة، جمالها يا علي أبهرني. أضف إلى ذلك أنها متعلمة بشكل جيد بالنسبة لامرأة ريفية، وقتها كنتُ في بدايات الشباب وهذه أول مرة يطرق ألحب فيها بابي، يا الله يا علي كم أحببت ذلك الوجه، فقلبي كان يتحرك من مكانه عندما أرى الغمازتين على خدودها، وهي تتوهج مع كل ابتسامة، خصلة شعرها الفاحم النافرة من تحت حجابها تلتمع عند ملامستها ضوء الشمس. أنفها المدبب ذو النهاية المنحنية قليلاً كان يأسرني.. صار حلمي أن أقاسمها السرير ذاته، وفي ليالي الصيف ولكي أتخلص من مشاكل الكهرباء وانقطاعها الدائم اذهب للنوم على سطح المنزل، وأطلق العنان لأخيلتي، أرسمُ وجهها على النجوم، ومع كل يوم أخطط لمستقبلي معها، عدد الأطفال الذين سننجبهم، أسمائهم، تفاصيل حياتنا اليومية. كنتُ أجدها حلماً صعب المنال إلا أن الأمل كان يلازمني دائماً، صرتُ أترصد وجودها، أينما حلت، خاصة حينما تذهب إلى البستان وتعود إلى المنزل، في قرانا تمثل المرأة قوة اقتصادية فهي تقوم بكل شيء تقريباً.

نعم أعرف ذلك، قاطعته.

- بعد زواجنا علمت إنها على دراية كاملة بكل مراقباتي لها، وتحركاتي رغم حذري الشديد قالها مبتسماً وأردف يقول، أخذ الموضوع يتطور سريعاً وأصبحنا نتبادل النظرات، وفي أحيان قليلة الابتسامات، وهنا قررت أن ارسل أمي وأبي لطلبها للزواج، كما هو معمول في القرى، وبعد مضي أيام قليلة جاء الرد من أسرتها بالموافقة، آه يا علي لو مثلت لك كيف كان حالي عندما حصلت الموافقة، فسوف يضعني ضابط الموقف في الحجز الانفرادي لأيام عديدة لاعتقاده أن لوثة إصابة عقلي.. كانت الأشهر القليلة، التي عشتها قبل أن أتم زواجي منها هي أجمل أيام عمري، مرت سريعة للأسف مثل طيف جميل.. صرت اعمل ليل نهار لتوفير المال اللازم، خصوصاً أن هذه العوائل تكون مهور بناتها باهظة بالنسبة لباقي العوائل.

كيف يتم تحديد هذه المهور؟

- الجمال، قالها مؤكداً، وأضاف: هو المحدد الرئيسي، وكلما كان لديك مزيداً من المال، صار بإمكانك الحصول على ثلاثة أو اربع زوجات جميلات.

كالحاج فاضل مثلا؟

- بالضبط، قالها مع ابتسامة على شفتيه.

(الحاج فاضل هو احد المعتقلين، اعتقل بسبب نزاع مع أبناء عمومته، اختلفوا معه من أجل قطعة ارض زراعية، والتهمة الأسهل للتخلص منه هي الإرهاب، كان أشبه بمراهق، وبالرغم من زوجاته الثلاثة إلا انه لا يتحدث سوى عن النساء).

أكمل فرحان حديثه قائلاً: بعد الزواج بأسابيع قليلة بدأت المشاكل تدب بين زوجتي وأمي. أول الأمر على شكل مناوشات بسيطة، لكن سرعان ما تصاعد العداء بينهما، فقد حاولت أمي إخضاعها لسلطتها كما هو حال ألام الكبيرة في الأرياف، وفي كل مرة أعودُ بها إلى المنزل من عملٍ

شاق كانت المشاكل تستقبلني. تتذمر أمي من زوجتي، وإنها غير مطيعة وعنيدة، وبالمقابل تشكو زوجتي من أمي وتقول أنها تهينها وتحاول ضربها، وأظل أنا بين نارين، وعلى هذا المنوال راحت الأحقاد تتطور بينهما وفي احد الأيام أخذتني أمي جانباً وراحت تهمس في أذني قائلة:

- أسمع يا ولدي، زوجتك تمتلك هاتف نقال سري، وقد رأيته بعينيّ والدليل أن لونه ازرق، نعم أزرق صغير، وانها تتحدث به خلسة، وأثناء ما كنا منهمكين في العمل، كانت تغيب فجأة، ولا تظهر ألا بعد أن ننادي باسمها، أنت تعلم يا ولدي أن أمك لا تكذب، خصوصاً في ما يمس شرف الناس.

- شعرت وقتها يا علي بدوار أصابني لما سمعت من أمي، كنت أعلم أن حقدها هو ما دفعها إلى اختلاق هذه الحكاية، لكنها نجحت في زرع الشك في داخلي، ومنذ تلك اللحظة تحولت حياتي إلى جحيم، إلى كرب لا يطاق.. في البداية صرت أصدرُ أصواتٍ قبل دخولي إلى غرفتنا، خوفاً من أن أراها ممسكة بالموبايل المزعوم، كنت أحبها كثيراً، ولا أريد أن أتسبب لها بجرح، لكن مع مرور الوقت صار الشك ينهكني، حتى فقدت التركيز في كل شيء، فقمت بترك عملي وتفرغت لمراقبتها، صرت أدخل فجأة إلى غرفتها متسللاً على أطراف أصابعي، وأمرها بخلع ملابسها للتفتيش. كانت تفعل ودموعها تنساب على خديها، كذلك دموعي صارت تنهمر أيضا استجابة لدموعها، تصور يا علي، أنها كانت عارية أمامي ولم المسها أو أشتهيها، هذه التي كنت احلم يوماً بنظرة منها، إلا أن الشك حول كل شيءً بهيج إلى قبيح، لقد أنفرط عُقد الحب في قلبي وصار يفقد كل يوم حبة. استمر الحال كما هو وصارت الشكوك تأكل كلانا، دون أن اجد دليلاً لما قالته أمي.

لماذا لم تحاول إبلاغ أمك، بأنك لم تجد عند زوجتك ما يدينها.

- حاولت يا علي مراراً، لكنها كانت تنهرني، وتصفني بالجبن، وأني حمار وزوجتي تركبني.

حركت رأسي أسفاً، وكيف جرت الأمور بعدها يا فرحان؟

لقد تضاعفت الأمور سوءاً، بعد أن أضيف سبباً أخر، هو تأخرنا في الأنجاب، كنتُ أستيقظ في بعض الأيام وأرى وجهها غاضباً، وجفنيها منتفخين، أعلم ساعتها أن الدماء قد انسابت، معلنة أن لا حمل هذا الشهر.

التفتُ نحوه:

هذه المسالة توتر المرأة في كل مكان، ولا تقتصر على قراكم.

- بالتأكيد يا علي، خصوصاً عندما كانت تشاهد باقي النساء وقد تكورت بطونهن، وهي لا يزال رحمها خاوياً، ساعتها تصبح شرسة جداً وعدائية بطريقة مخيفة.. وبعد مرور أكثر من عام على مأساتي المستمرة جاء يوم الخلاص من الألم، يومها خَرجت زوجتي يرافقها شقيقي الأصغر إلى بيت أهلها، كان على بُعد عشرات الأمتار من منزلنا، وبعد أن اتصلت بي لتأخذ موافقتي، لكني لم ارد لانشغالي بأمرٍ ما، وفور عودتها، بعد رجوعي إلى المنزل، وجدت سبباً للخلاص من عذابي، وبحجة أنها خرجت دون علمي رميت عليها يمين الطلاق، رغم صرخاتها.. بكائها.. توسلاتها.. لم أبالي بها، كنت افكر فقط بالتخلص من آلمي، لأتنفس بعدها كمن حرم من الهواء لسنوات.

بعد قصة فرحان، صار اهتمامي اكبر للتعرف على حياة الناس في هذه المناطق، والتي جاء منها غالبية المعتقلين، كنت أسألهم عن الجانب الاقتصادي الذي يحدد الجوانب الأخرى، وجاء اعتقادي هذا من انحيازي لآراء الفيلسوف الاقتصادي كارل ماركس.

حدثوني هم بدورهم عن الزراعة ودور أفراد العائلة والحيوانات في ديمومة العملية الإنتاجية، لكن المؤسف أن السنوات الأخيرة شهدت الاستغناء عن الحمير واستبدالها ب "الستوتة" وهي عبارة عن دراجة نارية تسحب خلفها حوضاً حديداً، تستطيع معهُ نقل أضعاف ما كان ينقله الحمار من الناتج الزراعي، سألتُ مستفسراً عن الحمار، لأني أمتلك ذكريات جميلة مع هذا الحيوان القريب إلى قلبي، فقال أحدهم وكان يدعى رداد:

- أن الحمير بعد الاستغناء عنها، عاشت في تجمعات وسط الغابات الصغيرة المنتشرة على ضفاف نهر دجله، ومع انتشار السلاح بعد العام ٢٠٠٣ بدأ البعض من شباب الشرقاط، الذهاب إلى أماكن تواجدها، والتسلي بأطلاق النار عليها، إلى أن تم القضاء على معظمها.

تضايقتُ كثيرا لما سمعت، فكرت لحظتئذ في ما الفرق بين الإرهاب الذي يتسبب في قتل البشر أو الحيوان! ورحتُ أسترجع شريط الذكريات عائداً إلى أيام الطفولة، حين كانت أمي تصطحبني معها في فصل الصيف إلى أهلها في قرى محافظة ديالى، و فور وصولنا وبعد الاطمئنان على خالتي، التي أحبها كثيراً، وأبنائها الذين كنتُ بمثابة شقيقهم الأصغر، اذهب مباشرة إلى الحمار، أجلسُ أمامه و أطيل النظر إلى وجهه الجميل حتى حفظتُ كامل حركاته.

بقرب مربطه، كانت خالتي تُخرج الخبز الحار من تنورها الطيني، الذي كان يتوسط الباحة الخارجية لمنزلهم الكبير، ألتقط منها رغيف خبز أتقصد أن يكون محمصاً، وأبدأ بأخذ قطع صغيره منه وأعطيها للحمار، كنتُ استمتع بالإنصات لطقطقة الخبز، وهو يطحنه بأسنانه.

كان حماراً حساساً، رافضاً للعبودية، فحين يضعون فوق ظهره اكثر من المعتاد كان يرفض التحرك، ورغم محاولتهم إجباره على السير، ألا أنه يأبى الانتقال من مكانه، إلا بعد رفع الحمل الزائد عنهُ، على عكس ما نعيشه هنا في المعتقل، حيث يتحمل الإنسان ما لا يقوى على حمله الحمار.

حقاً مسكين هو الإنسان، فمهما وضعوا فوقه سوف يمشِ، لأنه إذا لم يمشِ سوف يجبرونه على الجري.

مع مرور الأيام في المعتقل، ومع الكثير من الأفكار التي تراودني، وما كنت اسمعه وأراه، تأكد لي إننا لا نعارض الإرهاب، إلا حين يكون سبباً في إيذائنا، فليس مهماً عندما يقتل غيرنا، أو يهدم مدننا ليست مدننا، وتذكرتُ كيف أن كثيراً من الشعوب العربية فرحت وهللت للحادث الإرهابي الذي وقع في الحادي عشر من سبتمبر٢٠٠١.

-١٠-

المحن توحد البشر، قد تكون هذه العبارة صادقة في أماكن أخرى، أما في السجون فالأمر مختلف تماماً.. كانت أجواء من عدم الثقة والبغضاء هي السائدة بين المعتقلين، أراقبهم حين يقول احدهم لا تدخلوا الحمامات لأن الماء مقطوع، يبدأون بالتسلل إلى الحمامات واحداً بعد الأخر، للتأكد من أن الماء حقاً مقطوع، والغريب أن المعتقلين يستمرون بالذهاب للتأكد، رغم أن هناك أكثر من عشرة أشخاص ذهبوا قبلهم واكدوا الأمر.

كما علمني المعتقل، إن هناك كذبة أخرى تقول إن الإنسان لا يستطيع السيطرة على أعصابه.. هناك حالات تتكرر يومياً في السجون.. سقوط قطرة ماء من سجين خرج من الحمام، أو أن احد السجناء يدوس على سجين آخر في العادة يكون نائماً، من دون قصد طبعاً، لأن رؤية الأرض امر يحتاج إلى مهارة عالية، نتيجة التزايد ألمستمر في أعداد السجناء، وحين يفزع المعتقل النائم، يقوم بالنظر بغضب شديد إلى من وطئه برجله، لكنه سرعان ما يعود إلى نومه، ليقينه إن المشاجرة ستقود إلى عقوبة قاسية، فيضطره ذلك للسكوت وكظم غيضه.

كنت أصنف المعتقلين إلى قسمين: الأول من الظلم أن يكونوا داخل الزنزانة، وقسم آخر من الظلم أن يكونوا خارجها.

كنت أشاهد سجناء على الرغم من مأساتهم، لا يتأخرون في بيع كل رفاقهم في السجن، من اجل الحصول على سيجارة، فيستخدمهم بعض الضباط كعيون لهم داخل المعتقل للوشاية بالآخرين، وكانت أغلب الوشايات تدور حول أن فلان قام بتمجيد داعش، أو أن فلان تكلم بالسوء عن أحد الضباط، وبالعادة تكون هذه الوشايات محض افتراءات، كون المعتقلين يتجنبون الخوض في حديث يؤدي لضربهم وإهانتهم.. لأنك بعد

كل عقوبة ستواجه صعوبة بالمشي على قدميك، حتى أن بعضهم نقوم بحملهم وإدخالهم الزنزانة.

ونتيجة لذلك كان بعضهم يترك الصلاة، أو يبدأ بسب المقدسات، كنتُ التفت نحو الشخص الجالس بجانبي، وأسمه خلف القيسي وأقول له:

أن من يدخل هذا المكان، سيخرج منه ملحداً أو إرهابياً.

- فيضحك قائلاً: بالفعل.

كانت كثير من القصص، تدور حول كيفية تحول بعض المعتقلين إلى إرهابيين.

حدثني فارس عن أحداها، وفارس هذا هو شقيق احد الإرهابين المعروفين لدى القوات الأمنية، (يلقب بالأعور)، حيث قال:

- كان شقيقي شخصاً طبيعياً، حتى لم يكن متديناً أصلاً، وبعد أن تنافس على فتاة لغرض الزواج منها، مع احد عناصر الشرطة في قريتنا، عمل هذا الشرطي على إزاحة أخي عن طريقه، فقام بكتابة تقارير، اتهم فيها شقيقي بأن لديه علاقة مع جماعات إرهابية، زاعماً مشاهدته وهو يرتدي الزي الأفغاني، ويقف في نقطة تفتيش أقامها تنظيم القاعدة قرب مدينة كركوك. وبعد اعتقال دام أكثر من عامين ونصف تم الأفراج عنهُ، بعد أن فشلوا في أثبات أية تهمة ضده.. خرج وقد فقد احدى عينيه، على يد ضابط مشهور بقسوته في التعامل مع المعتقلين، يدعى احمد الجبوري، فقد قام بإمساك أخي من خلف رقبته، وبقوة لطم وجهه في الحائط، الذي كان يحتوي على مسمار، مما أدى إلى دخوله في عينه، ليطفئها والى الأبد، زد على ذلك أن أخي تعلم التدين (نسخة المعتقلات)، وعندما يتحد التطرف ألديني بالأحقاد، فلا غرابة في تحول الإنسان إلى قاتل.

في الأشهر الأخيرة وانا في هذا المكان، كان هناك دفعات من السجناء تأتي وأخرى ترحل، بعض هؤلاء القادمين كان يجد في هذا المكان فندق خمسة نجوم بالنسبة للجحيم الذي جاء منه، بينما يراه الآخرون عكس ذلك تماماً.

في احدى الليالي جاؤوا بأربعين معتقلٍ، وزعوهم على القاعات، كان نصيب قاعتنا من هؤلاء تسعة أشخاص.. تعلقت أبصارنا في وجوههم عندما دخلوا، كان منظرهم مروعاً، كأنهم خرجوا من القبور تواً، يشبهون تماماً من مات نزفاً، تغطي أجسادهم خرق بالية، وجوههم شوهاء، بلا ألوان، بلا خدود، مجرد نتوءات عظمية، عيونهم غائرة في جماجمهم.

وفور دخولهم، أدخلهم المراقب مباشرة إلى الحمام، لأن رائحتهم كانت كريهة جداً، تشبه رائحة البيض الفاسد.

كان بينهم شخص يدعى سبهان، اصبح صديقاً لي فيما بعد، لاهتمامه بالقراءة، أخبرني كيف انهم كانوا في معتقل سري، عند جهة مجهولة، وقد قام محافظ صلاح الدين بالتفاوض، وشرائهم من تلك الجهة، كان سبهان سعيداً في تواجده هنا، وعندما سألته مستغرباً، عن سر هذه السعادة، صار يكلمني عن ما حدث معه في ذلك السجن السري، وعن طريقة (التعذيب بالتجويع) فيقول.

- لقد كانوا يمنعون عنا الطعام لمدة ثلاثة أيام، ويقايضونا بالاعتراف على أننا ننتمي إلى تنظيمات إرهابية، مقابل إعطائنا الطعام. كنا نعترف بحسب قوة تحملنا، فبعضنا اعترف منذ اليوم الأول، وأخرين في اليوم الثاني، وهكذا.. وفي مرات أُخرى، يصورونا بكاميرات هواتفهم ويضحكون بفرح، ونحن نقلد أصوات الحيوانات، وليس هذا فقط، بل يأمرونا في أوقات أخرى بالمشي على أيدينا وأرجلنا مثل الكلاب، ونقوم بمهاجمة بعضنا البعض، وأثناء ذلك يجب أن لا نتوقف عن النباح، وفي أحيان كثيرة يعصبون أعيننا بقطع من القماش، ويطالبونا بالجري بسرعة، حيث تكون أيدينا مكبلة إلى الوراء، دون أن يوقفنا شيء سوى الارتطام بالجدار أو القضبان الحديدية المتواجدة هناك.. أحدهم كان يطلب منا فتح أفواهنا، ليضع داخلها حذاء، وبعدها يطلب منا غلقها بقوة، ويتركنا هكذا، وإذا ارتخت عضلات فكينا، وسقط الحذاء من فم احدنا، يكون يومه بلون الحذاء.

أُقاطعه، لأقول.. هنا يأخذون منا كل ليلة عشرة أشخاص، يضربوهم بقسوة ويعيدونهم، وهم يعرجون.. فيرد

- فقط يضربونهم ويعيدونهم.

نعم وماذا تريد أكثر؟

- هناك كذلك، يأخذون كل يوم عشرة معتقلين، لكن لا يعيدونهم.

جاء معهم أيضاً أبو حسن ذو الشعر الشبيه بالصدأ، تجاعيد وجهه البارزة، كأنها نحتت بإزميل، تشي بعمره الذي أثقلته السنين، حكى لي كيف تم تعريته في معتقل سري في ناحية "قره هنجير" قرب مدينة السليمانية، ليقوم احدهم بإخراج عضوه الذكري محاولاً اغتصابه، كان يحدثني بعينين دامعتين وشفتين قرمزيتين ترتجفان، كأنه طفل تعرض لأحراج كبير، قائلاً :

- عندما شعرت انه يحاول أن يفعلها، قلت له "أبني سأعترف بكل شيء فقط تراجع عن ما تنوي فعله " وفعلاً تراجع.

وما هي تهمتك يا أبو حسن؟

- أتهموني بأني قد زوجتُ أحدى بناتي لأحد الدواعش.

وهل فعلاً أنك فعلتها؟

هز رأسه، واردف متلعثماً:

- والله يا علي لم يبقى لدي طعام يبقيها على قيد الحياة.

قالها ماسحاً عينيه بظاهر يده، ليمنع تدحرج الدموع المتجمعة في أجفانه السفلى من النزول على خديه.. حاولتُ مواساته، تغيير الموضوع، سألته هل لديك أبناء، نظر إلى عينيّ ثم دفن وجهه بين كفيه ودخل في نوبة بكاء تركته يكملها.

جلبت لهُ الماء، وبعد أن استعاد هدوءَه، شربه وأكمل حديثه قائلاً:

- كنا نشعر بالسعادة؛ حين يُخرجونا لنقل الأزبال، لأن ذلك يمنحنا فرصة إخراج بقايا الطعام، من أكياس النفايات، لنلتهمها بسرعة.. الجوع مؤلم يا علي مؤلم جداً.

بالمقابل أصابتني الدهشة، وأنا أستمع لحكايات معتقلين جاءوا من سجون أخرى أكثر إنسانية، وقد حدثني "حازم" عن وجود جهاز تلفاز في معتقلهم، كما أن بإمكانهم طلب الطعام من خارج السجن في حال لم يعجبهم طعام المعتقل، وكان مدير السجن يقول لهم في كل مرة يزورهم، هل تحتاجون إلى شيء يا أبنائي، اذكر اني قاطعته مندهشاً.

يقول لكم، يا أبنائي!

- نعم، نعم، ويسمح لأي شخص أن يتصل بذويه، ليعلمهم بمكان تواجده.

كم انه رجل ذكي هذا الضابط، لو أنكم إرهابيون حقاً، فهو يوبخكم بإنسانيته، فالتعامل الإنساني مع المجرم، يؤلمه اكثر من الف ضربة يتلقاها.

قال احد القادمين، من المعتقلات الأخرى:

- هل يزوركم القاضي؟

قلنا: نعم، لكن في فترات متباعدة.

- وهل تحدثوه عما يجري؟

بالتأكيد لا.. وحذرناه عما سيجرى له اذا ما تكلم.

- أنا لا أطالبكم بالحديث الذي يؤدي إلى الانتقام، أسألوه فقط عن سبب تواجدكم، فبعضكم متواجد منذ خمس سنوات، والبعض الآخر منذ سبع سنوات، وهم لا يعرفون السبب.

في أول زيارة للقاضي بعد هذا الحديث، بدأنا بسؤاله، وتركزت الأسئلة حول "إلى متى سنظل هنا ولماذا؟" كان السجناء الذين تحدثوا تتراوح

مدد توقيفهم من عام إلى سبعة أعوام، وهم الأغلبية، وبعد أن انتهوا من شرح حالتهم وكيف تم تسفيرهم من سجن إلى أخر، هز القاضي رأسه ووعَدنا خيراً، وانهُ سيقدم لنا الأجوبة خلال زيارته القادمة، وقبل نهاية الزيارة اخذ قوائم بأسمائنا، مطالباً ضباط الدعاوي القيام بزيارة المعتقلين بين فترة وأخرى، ليطلعوهم على وضعهم القانوني، وما هي الأوراق التي يجب إكمالها من قبل أهالي المعتقلين.

الكثير من الحريات مؤجلة، بسبب توقيع كتاب ما، أو لأن أهالي السجناء لا يمتلكون المال الكافي، للتعجيل بوصول ما تحتاج قضايا أبنائهم من أوراق.. وبالفعل بدأ ضباط الدعاوى بزيارتنا.. وفي الواقع كنت أتمنى لو أنهم لم يفعلوا، حيث فتحت هذه الزيارات الأبواب لنهب أموال المعتقلين، فقد اتبع هؤلاء الضباط سياسة التخويف للمعتقل، فراحوا يرددون كلما سألهم أحد السجناء قائلين: أن قضيتك شائكة جداً، واحتمالية الحكم عليك كبيرة، يرددون هذه الكلمات متصنعين تعابير الأسف على وجوههم، لزيادة ذعر المساجين، وبعدها ينصحوهم بتوكيل محامي محدد، لأن لكل ضابط محامي خاص، وبسبب هذا التخويف، كنت أسمع توسلات السجناء أثناء المواجهة مع أهاليهم، طالبين منهم توكيل المحامي الفلاني. وهذه فرصة كان المحامين يستغلونها بشكلٍ جيد، طالبين من ذوي المعتقلين مبالغ طائلة، ما يضطر الكثير من الأهالي لبيع كل مقتنياتهم، وحتى بيوتهم في بعض الأحيان، ظناً منهم انهم سينقذون أبنائهم، من أتون هذا الجحيم.. لكن الحقيقة التي اكتشفناها بعد فوات الأوان، أن القضية ستبقى مركونة على حالها، وكل الأموال المدفوعة ذهبتْ سُدىً.

كان مدير السجن يطل علينا بين فترة وأخرى، يحذرنا من إعطاء الأموال، خصوصاً إلى المحامين، و يقول لنا:

- "أن المحامي سارق مثقف"، مؤكداً: انهم لا يفعلون شيء سوى اخذ الأموال.

إلا أن أهالي المعتقلين يواظبون على إعطاء المال، للتحالف القائم بين ضباط الدعاوي والمحامين.

-١١-

حل الصيف، والمدن المحررة من تنظيم داعش أزداد عددها، وقد ساهم ذلك في ارتفاع أعداد المعتقلين الجدد، حتى صار الواحد منا عندما يستيقظ، يجد قدم أحدهم فوق رأسه، ويد الأخر على بطنه، وفي أحيان تجد جسداً بأكمله صار فوقك، وقد تسبب ذلك بحالات اختناق كثيرة، وأصبحنا ننادي بين ساعة وأخرى على ضابط الموقف، لنبلغه أن هناك شخص بدأ يختنق وأن أخر قد فقد وعيه، مما أضطر أدارة السجن لإخراج أولئك الذين يعانون من مشاكل تنفسيه، أو الطاعنين في السن، إلى قفص في باحة السجن الخارجية (المكان الذي تتم فيه مقابلة الأهالي)، وبعد أن يستعيدوا وعيهم، يدخلوهم مرة أخرى إلى القاعة.

حاولنا حل المشكلة، فجمعنا في ما بيننا مبلغ من المال، واشترينا مبردة هواء، نجحت إلى حدً ما بتخفيف لهيب الصيف، لكن بشرط توفر الماء بشكل دائم، لأنها اذا فرغت ستساهم في خنقنا أكثر.

رغم البرد، إلا أن الشتاء كان رحمة لنا.

بعد أن ادركت إدارة المعتقل، أن هذه الإجراءات لم تعد نافعة، بدأوا بنقل عدد من السجناء، خاصةٍ أولئك الذين ثبتت براءتهم وينتظرون قرار قاضي الجنايات، أو من يعانون مشاكل صحية حادة، إلى قاعة تابعة للشرطة المحلية، تبعدُ قرابة الربع ساعة بالسيارة عن هذا المكان، وبالفعل تم في ذلك المساء نقل الدفعة الأولى من السجناء، كانت قرابة الأربعين معتقلاً، من كل قاعة عشرة معتقلين، لكن المكان ظل مكتظاً.

بعد أسبوع من ذلك، بدأت تصلنا الأخبار السارة عن تلك القاعة، وأنهم يسمحون للسجناء فيها بالتدخين، ولا يقوموا بضربهم دون أسباب جدية، كما أنهم لا يمانعون أذا طلب السجين طعامه من السوق.

بعد سماعي لهذه المغريات، أصبح همي الوحيد هو الانتقال إلى ذلك السجن، بعد أن تحجمت أحلامي وضاقت سعتها، وبدل التفكير بحريتي، اكتفيتُ بالحلم بسجن أقل قسوة مما أنا فيه، فصار تفكيري منصباً على كيفية الانتقال إلى "سجن القادسية" هكذا كنا نسميه.

لم يتأخر تحقيق الحلم كثيراً.. ذات يوم وأنا متكيء على الحائط، بصري يرنو نحو تلك الجدران القميئة كما هي العادة ساعة الغروب.. سمعت صوت الضابط، منادياً على مراقب القاعة، طالباً منه تسجيل أسماء المعتقلين، الذين لا توجد شكوى ضدهم، وليس لديهم اعترافات.

قفزتُ من مكاني كالبرق، فور سماعي لهذا الكلام منتهزاً الفرصة، اتجهت نحو الباب منتصباً أمامه، نظري تركز حيث يقف الضابط خلف القضبان، علني ألفت انتباهه، وبعد محاولات عديدة، رسمتُ له ابتسامة مبالغٌ بها، حتى نجحت في جعله يراني، لم يبادلني الابتسامة، إلا انه طلب مني اسمي الكامل، واسم شقيقي أيضاً، رددت أسمائنا بسرعة كبيرة، حتى أنهُ رمقني بنظرة جليدية، لأنه لم يستطع تدوينها، مما اضطرني إلى إعادة ترديدها.

أرُسلت جميع الأسماء في نفس الساعة، إلى مدير الاستخبارات، لغرض تدقيقها، فقام بحذف بعضها، ولحسن الحظ لم نكن أنا وشقيقي من بين الأسماء المحذوفة.. وبعد ما يربو على الساعة أذيعت الأسماء التي تمت الموافقة عليها، ودعنا من حولنا بسرعة، وبقينا بالملابس، التي على أجسادنا فقط، حيث لم يكن مسموحاً الخروج من المعتقل بأكثر من ذلك. اقتادونا بعد أن ربُطت أيدينا إلى الأمام، لكن هذه المرة دون تعصيب أعيننا، ما أتاح لي رؤية الشارع من جديد، لأول مرة منذ أكثر من عامين. أركبونا في باصين صغيرين ومع كل مجموعة ركب ضابط وشرطي.

في الطريق كنت مثل طفل يرى الأضواء الملونة للمرة الأولى، محال تجارية، رجال أحرار يدخنون السيجار، أربعة شباب يجلسون على مقاعد بيضاء، وسطهم طاولة من نفس اللون، يلعبون الدومينو ويرتشفون

الشاي، لا أعرف هل تراهم يعلمون أن هناك من يحسدهم على وقتهم هذا.

التفاتات سريعة، أريد أن لا يضيع شيءٌ من هذه الأشياء التي افتقدها منذ عامين، أراقبُ الناس الواقفة تحت أضواء المحال المتلألأة، أراهم أكثرُ توهجاً منا، نحن الذين أصبحنا نشبه الصحراء، كانت وجوهنا تعكس أرواحنا الجرداء، فالحرية تزُيد الأنسان جمالاً.

البشر يكونون متشابهين جداً، في اللحظات الفارقة من حياتهم، الأطفال في ساعاتهم الأولى، وهم يبصرون النور مقبلين على هذه الدنيا، متشابهين.. الكهول في ساعات الاحتضار الأخيرة، وهم يهمون مغادرة هذه الدنيا يكونون متشابهين.. كذلك الخائفين.

توقفت السيارة لبعض الوقت عند نقطة تفتيش، ثم ما لبثت أن انطلقت لتدخل بابا كبيراً يؤدي إلى بناء بسيط، مكون من ثلاث بنايات متقاربة الطراز، توقفنا عند مدخل قاعة أمامها بوابة مزدوجة من الحديد.

فتح الحارس المرافق لنا باب الباص، وأمرنا بالنزول تباعاً، وقفنا بهدوء أمام السيارة، قرب المحرك الذي كان يبرد مخرجاً أصوات جك، جك،. دقائق قليلة وجاء ضابط المركز الجديد، (مركز القادسية) برفقة احد الحراس، وبعد قيامه بفتح باب السجن، المقابل لمكان وقوفنا، قال:

- كل شخص يسمع اسمه، يتوجه نحوي.

توجهنا الواحد تلو الآخر، وبعد أن أتموا تفتيشنا فتحوا لنا باب القاعة: كانت بالأساس قاعة لإقامة الحفلات، لكن بسبب اكتظاظ السجون الأخر، استخدمت مكانًا للاعتقال.

وفور تجاوزنا عتبة القاعة، رأينا العديد ممن كانوا معنا في المعتقل السابق، قفزوا لتقبيلنا ما أن أغُلقت الباب خلفنا، تزاحموا على ضيافتنا، قدم لنا أحد السجناء الذي كانت علاقتي به جيدة، مجموعة من الفطائر، معها شاي وفاكهة، و آخر وضع أمامنا علبة سجائر مع قداحة، التهمنا كل شيء وضع لنا، مثل خراف جائعة، بعدها دخنا بشراهة.

عامٌ ونصف في سجن تكريت لم نذق هذه الأصناف من الطعام، ولم ادخن سوى ست أو سبع سجائر، كنتُ احصل عليها خلال الزيارات الخاصة.

فرحين بما حولنا وكأنهم أعادونا إلى منازلنا، كانت ليلتي الأولى التي أنامها وانا مستلقٍ على ظهري، راضياً بذلك، رغم أننا نمنا على البلاط الذي افترشناه بشرشف بسيط.. وأرحتُ رأسي على نعالي النايلون، بعد أن أدخلتهما ببعض. لكني أحسست ساعتها أن الشرشف صار فرو ثعلب ناعم، والنعال تحول بطريقة سحرية إلى وسادة من ريش.

استيقظتُ صباحاً بعد نوم هانئ، لأول مرة انهض دون ضرب على الأبواب، دون خوف وبلا صراخ.. بعد الخروج من الحمام تناولت إفطاري، كان مشابهاً لما موجود في السجون السابقة، بيضة مسلوقة مع القليل من الشوربة، وبعد الانتهاء من طعامي، وقف احدهم بجانبي ممسكًا ورقة، يدون عليها طلبات المعتقلين، عرفت انه صاحب الحانوت، حيثُ يقوم بجلب كل ما نحتاجه تقريباً من السوق، ورغم أن ما يأخذه من مال أكثر من السعر المعتاد، ألا أننا لم نبالِ بهذا الأمر.

كانت سعادتنا كبيرة، ونحن نعيش في سجن يمنحنا النوم والطعام والمعاملة التي نطمح لها، صار بإمكاني استخدام المال.

كان لدي مبلغ جيد، بقي معي منذ زمن، لأني لم أكن بحاجة أليه في سجن الإرهاب، باستثناء بعض الحالات ذات الطابع الإنساني، مثل جمع مبلغ لبعض المعتقلين لأجل إعطاءه إلى ذويهم، لأنهم لا يملكون أجرة العودة بعد زيارة أبنهم المعتقل، ألا أن وجود المال معنا كان يُشعرنا بالراحة، حتى اذا لم نستطع أنفاقه.

بعد أسبوع من وجودنا في سجن القادسية، (الجميل) زارنا مدير السجن، فاجئني؛ إنه مازح بعض السجناء، حيث كانوا من معارفه قبل الاعتقال، بعدها سألنا ما اذا كان هنالك ما ينقصنا، فبادر احد السجناء بالنهوض طالباً منهُ شراء جهاز "تلفزيون"، تطلعت لحظتها إلى مدير السجن، كنت

أظن أن رده سيكون قاسياً، على هذا الطلب المترف، ألا انه أجاب بهدوء:

- الأن لا نستطيع شراء أي شيء؛ كوننا في الربع الأخير من السنة، والإمكانيات المادية لا تسمح بذلك.

- سيدي نحن من سيقوم بشرائه، رد المعتقل وأضاف، أننا نريد الموافقة منك فقط.

هز المدير راسه موافقاً، واشترط علينا ألغاء بعض القنوات، وكان يقصد تلك القنوات التي تهاجم الحكومة، أو تبث خطاب العنف والكراهية، فوافقنا طبعاً. لم أشعر لحظتها بدموعي وهي تترقرق في عيني، وأنا أتابع هذا الحوار.

رغم كل هذا الترف، لكني لم أنجح بالتخلص من مخاوف جديدة سيطرت علي، كانت تطل برأسها القبيح بين الحين والآخر، تغذيها إشاعات يُروج لها دائماً، مفادها انهم يريدون إرجاعنا إلى السجن القديم. ما زلت أذكر في احدى المرات أننا لم نتناول وجبة الغداء، تُرك قدر الرز والمرق على حالهما لم يمسا، حتى ظن الضباط والحرس أننا مضربون عن الطعام، إلا أنهم حين عرفوا بخوفنا بشأن احتمالية عودتنا لذلك السجن الرهيب، سعوا لطمأنتنا وبأننا سنبقى هنا، وهذا ما أعاد لقلوبنا الدماء، وفتح شهيتنا من جديد.

صارت قلوبنا تتعلق في حناجرنا، كلما جاءت سيارة تابعة لسجن الإرهاب، وقامت باصطحاب بعض المعتقلين، بسبب مجيء موعد محاكمتهم أو لغرض استكمال بعض التحقيقات معهم، كنا لا نعود إلى طبيعتنا ألا بعد رحيل السيارة. وكلما أرتفع معدل الفرح، ازدادت مخاوفي من العودة لذلك الجحيم.

خصوصاً بعد زيارة أهلي أول مرة في هذا المكان.. فقد أصبح زمن اللقاء معهم طويلاً، مقارنة بالدقائق القليلة الممنوحة لنا في سجن الإرهاب، وصار يُسمح لهم بجلب كل ما احب من طعام، الباچة، البامية،

حلاوة الشعرية. كان الأهالي يجتهدون من اجل التخفيف عن أبنائهم المعتقلين، لم يكونوا يبخلون علينا بأي شيء.

كان يوم زيارة الأهالي في هذا السجن سعيدًا لغالبيتنا، وتعيسًا لأولئك القلة الذين لم يزرهم احد، ورغم أننا نقوم بتقاسم كل ما يأتينا معهم، ألا أن ذلك لم يكن ليخفف عليهم عدم رؤية أهاليهم، والاطمئنان عليهم، أرى الحزن يرافقهم إلى أن ترحل أخر عائلة.

صرت ألاحظ أن هناك معتقلين يشاركوني الطعام بفرح، لكن البعض كانوا يرفضون بابتسامة هادئة، فهمت فيما بعد انهم سيأثمون لو شاركوا يسارياً طعامه.

كان هناك بعض السجناء، من أصحاب الأفكار الجهادية يتجنبون الكشف عن معتقداتهم، لان غالبية المعتقلين، كانوا ناقمين على داعش، لانهم يرونها السبب في كونهم خلف القضبان، وهو رأي كنت أراه صائباً إلى حدً ما. لهذا كان بعضهم يستخدم التمويه، للتغطية على أفكاره المتطرفة من خلال المبالغة بالحديث عن الخمر والنساء.

أشترى لنا احد الحراس التلفاز، بعد أن جمعنا المال اللازم، ورغم الخلافات الحاصلة، بسبب أمزجة المعتقلين، وإن كل سجين يرغب بمشاهدة شيء معين، ألا انه كان يوماً رائعاً بالنسبة لنا، قسم لنا مراقب القاعة، (أبو غيث) مواعيد البرامج، صباحاً خُصص للاستماع إلى إذاعة القرآن، وظهراً لمشاهدة الأفلام، أما بعد المساء فصار لمتابعة الأخبار، وقد حددنا موعد الإطفاء في الحادية عشر ليلاً.

لنكمل ما تبقى من الليلة مستمعين، مستمتعين بقصص يرويها كل سجين عن حياته، أما أنا فكنت افضل الاستماع للحكايات المتداولة عن أفعال داعش، ولأن هذا التنظيم لم يحتل مدينتي، فأني شغفتُ بالتعرف على قصصهم، عن أساليبهم في التعامل مع البشر، ويوم سألت الأستاذ فريد الشرقاطي، الشاعر و أستاذ اللغة العربية، عن داعش، قال:

- إذا رأيت الموت في ثنايا الأماكن، أعلم أن داعش كانت هنا، وإذا رأيت الأحجار وقد خُرب زُخرفها، فاعلم أن داعش كانت هنا، واذا رأيت الناس تتضور جوعاً وتتألم خوفاً، فاعلم أن داعش كانت هنا.

من تلك القصص المدهشة التي رواها، قد حدثت في مدينته الشرقاط.. فبعد أن قتل داعش أحد الفتية المراهقين من أبناء المدينة، وتحديداً من قرية الخانوگة، بتهمة التواصل مع القوات الأمنية العراقية، وما أن أتموا قتله في أحدى ساحات المدينة العامة، حتى عادوا لأخذ شقيقه الأخر.. لم يعترض الأب ساعتها، لأنه يعلم أن الاعتراض يعني الموت لكليهما.. إلا أن الأم المفجوعة اندفعت أمام السيارة، كأنها رمحٌ مثقف، رمت حجابها بتحدٍ، ممسكةٍ ثوبها من منطقة الرقبة بقبضتيها المرتجفتين، وصارت تَصرخُ ملتاعة مهددة بتمزيقه، إذا ما اخذوا ولدها الآخر، تلك الساعة بدأ الأهالي يتجمعون، لمشاهدة ما يحدث، تاركين مسافة أمنة بينهم وبين الحدث.. كان الدواعش يعلمون أن الأهالي ناقمين عليهم، بسبب الجوع والقحط والدمار الذي حل بمدنهم.. كانت ثورة الغضب التي اطلقتها المرأة تتصاعد، تصرخ راكضة في كل اتجاه دون أن تترك ولدها يفلت من يدها.. كل هذا أكد للعصابة أنها جادة في تنفيذ تهديدها، لهذا خضع عناصر داعش للمرأة، وانطلقوا بسياراتهم.

قاطعته قائلا:

أنها تذكرني باستير، المرأة اليهودية التي قدمت جسدها لتنقذ قومها، حقاً ثمرة الجسد بالنسبة للأم أهم من الجسد.

رد علي موافقاً على ما قلت واردف يقول:

- في نفس اليوم أخذت أبناءها وهربت.

وكيف يستطيع الناس الهروب من هؤلاء؟

- في البداية هرب القليل.. لأن الابتسامة كانت تعلو وجوه التنظيم الإرهابي، وراحوا يحدثون الناس بلطف، بل أكثر من ذلك، فقد قاموا بإطلاق عفو عام عن كل من وقف ضدهم يوماً. وطالبوا القوات الأمنية

من أبناء تلك المناطق، تسليم هوياتهم وأسلحتهم وليعيشوا بسلام، وهذا ما حصل.. لكن بعد مرور أسابيع، ومع بسط سيطرتهم على مفاصل المدينة، بمساعدة البعض من أبنائها، أخذ وجههم الحقيقي يتكشف، وبدأوا بجر الناس إلى مسالخهم، التي أقاموها في تقاطعات الطرق، والأسواق المكتظة، ذلك لأنهم يحرصون على أن يرى الناس جرائمهم، لكي يرُهبوا ولا يفكروا بالوقوف بالضد منهم، وبالفعل نجحوا في هذا المسعى إلى حدً كبير.

وحكى لي أيضاً قصة "علي الجميلي" ذلك الشاب الذي تحدى داعش، وقام بأنزال رايتهم من أحد أبراج المدينة، ليتم إعدامه. بعد أن طَلب منه الدواعش، الصعود إلى ذات البرج، وإعادة الراية لمكانها، وعندما كان قريب من القمة، بدأوا بفتح النار عليه.

كما حدثني عن تحويلهم احدى الأبنية في المدينة، إلى ما سمي ب"الهيئة الشرعية"، وهذه ما إن تصطحب شخصاً معك، وتذهب اليهم لتقسم لهم إنك رأيت هاتف بحوزة احدهم، أو أنك شاهدت أحدهم يتصل بالهاتف، فأنهم سيقومون بإعدامه، أما تارك الصلاة فكانت عقوبته الجلد، بحسب إفتاء الهيئة الشرعية، كذلك هو الحال مع المدخنين. كان هناك بعض الناس، استخدموا الهيئة لغرض التخلص من خصومهم. وقال الأستاذ مكملاً حديثه:

- في الوقت الذي ضَيقت فيه القوات الأمنية حصارها على المناطق المحتلة من قبل داعش، ازداد الضغط على الأهالي، وأصبحت المواد الغذائية شحيحة، لا بل منعدمة، لم يبقَ سوى الحبوب والماشية، حتى صرنا نستخدم شحوم الحيوانات للقلى بدلاً من الزيت، هذا في حال أننا نجحنا بالحصول على طعام نقوم بقليه.

عدنا لاستخدام حجر الرحى، كطريقة بدائية لطحن الحبوب، وكنا بهذه الطرق نسد الأفواه الجائعة، واحياناً نقوم بخلط قطع الخبز مع العصير الصناعي، وهو أخر ما تبقى على رفوف المحلات، بشكل أكياس نذيبها بالماء، و ما زاد الأمر سوءاً هو عدد أفراد العوائل الكبير.

قاطعته قائلاً: بعد هذه المعاناة، كان هنالك من آمن بداعش وأعلن البيعة لهم فكيف هذا؟

- لم يؤمن أحدً بهم يا علي، إلا أن الجوع.. الجوع كان قاسياً وأنت في مدينة، لا يدخلها سوى القليل من الطعام، واذا لم تظهر ولاؤك لهم فلن يعطوك شيئاً، وهذا يعني الموت جوعاً أنت وأطفالك.. من الصعب الحفاظ على كرامتك وقناعتك في وقتٍ لا تجد فيه ما تأكل، وهناك فئة أخرى انضمت إلى داعش لأنها كانت منبوذة، وغير محترمة وانظموا اليهم ليجبروا الناس على احترامهم والخوف منهم، وفي قريتنا يشعرُ الواحد منا بسعادة غامرة حين يخافه الأخرون، إضافة إلى أن البعض انضم إلى داعش خوفاً منهم.

لكن سمعت قصة، عن قرية كاملة ناصرت داعش، أعتقد أسمها قرية الشيخ حامد.. ضحك الأستاذ بوقار قائلاً:

- أنك تعرف كل القصص، وكأنك عشت بيننا، هذا صحيح هل تعلم لماذا وقفت هذه القرية مع داعش؟

لا.

- في القرى ينتشر الانتقام بشكل كبير، كما تعلم، حتى أنه يعمي بصائر الناس.. قبل أعوام قليلة قام عدد من أهالي الشرقاط الناقمين على الإرهاب، بتشكيل مجاميع مسلحة تحت عنوان (الصحوة) كان قائدهم من أهالي قرية سديّرة، قد فقد أثنين من أشقائه على يد تنظيم القاعدة هكذا كنا نسميه قبل أن يتحول إلى تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، وبعد أن وردت معلومات أن أحد أفراد هذا التنظيم، يختبئ في بيت يقع وسط قرية الشيخ حامد، قام بمداهمة المنزل، لكنه لم يجد يومها سوى النساء، مع رجل طاعن في السن، وليشفي غليله قام بأخذ بعض الملابس الداخلية لنساء المنزل (حمالات صدر، لباسات داخلية) وقام بتعليقهن على هوائي السيارة الأمامي (الأريل)، وصار يتجول في طرقات القرية، ولأن جميع أبناء القرية من الأقارب، شعل هذا الفعل نار الثائر والانتقام.

كيف كنتم تهربون من هذا الجحيم؟ ذكرته بسؤالي

- ابتسم قائلاً سوف احكي لك كل شيء، لا تتعجل ستنتهي قصصنا ولا ينتهي الوقت هنا.. الهاربين من جحيم داعش كما أسميته يا علي وهي كلمة ملطفة لما عانيناه. انقسموا إلى قسمين.. قسم يملك المال القليل، وقسم لا يمتلكه أبداً، من يمتلكوه يقومون بالاتفاق مع احد المهربين، العارفين خبايا الطريق جيداً، علماً أن الطريق بين الشرقاط وصولاً إلى تكريت وهي أول المدن المحررة، تكون طرق جبلية وعرة، وتفوح من شقوقها الغازات الخانقة، ويتزايد انبعاثها في أيام الصيف الحارة، ما يستوجب على الشخص اجتياز هذه المناطق بزمن قياسي والا قتلته هذه الغازات، وهذا ما يبينه لك المهرب.. أما في حال لم تكن تملك المال، فأنك ستهرب من دون مهرب، والكثيرين في مثل هذه الحالة ماتوا أثناء محاولة هروبهم، عوائل بأكملها، وأفراد لقوا حتفهم، لانهم ضلوا الطريق أو أن المؤونة كانت قليله فكان مصيرهم الموت، بعضهم مات عطشاً.. عندما هربت كنت أشاهد هياكل عظمية، و جثث في طور التحلل، المنظر رهيب يا علي، كان الأجدر أن يسمى طريق الجثث المتألمة.

كان الأستاذ فريد الشرقاطي يتحدث لنا في كل يوم عن حادثة، أو مأساة حصلت خلال فترة احتلال داعش لمدينته، حدثني عن مخيمات النازحين التي هربوا نحوها وما حدث بها من أحزان، وكيف يتم استغلال النساء تحت مسمى "الزواج" والتخفيف عن كاهل العائلة، وهذا الهدف المعلن، لكن أن تكون إنسانياً مع عوائل تمتلك فتيات جميلات، فالأمور ستختلف. للأسف أن أجساد النساء المهجرات لم تحرك ضمائرهم، لكنها نجحت في تحريك أعضائهم التناسلية وكروشهم أيضاً.

أما صديقي "صمد المصلاوي" ذلك الهادئ، صاحب الصوت المنخفض دائماً، للأسف مات قبل خروجي بشهر واحد، نتيجة مشاكل في الكلية الوحيدة التي يمتلكها، المحزن أننا تواعدنا أنا وصمد أن تستمر علاقتنا بعد خروجنا، وأعطاني عنوان منزله في الموصل. كان يحدثنا عن الموصل، وكيف اتخذت داعش بعض الحيل لإضفاء القدسية على أفعالها، وإشاعة قصص تداعب مشاعر البسطاء من الناس، على شاكلة أن هناك

من شاهد الملائكة، وهي ترتدي أثواباً بيضاء، وتقاتل جنبًا إلى جنب مع أفراد التنظيم، وهناك أخر رأى الرسول في منامه يقف عند أبواب مدينة الموصل، فارداً ذراعيه لمنع الجيش العراقي من دخول المدينة، وقص لنا حكاية (الخسفة) تلك الحفرة التي لا قعر لها، كان تنظيم داعش يستخدمها ليرمي فيها كل من يعارضه.

على هذه العادة جرت الأيام، نسهر أو نغفو على اثر سماعنا لحكايات عن كمية الشر الغافية في النفس البشرية، المستعدة دائماً للخروج والفتك بالإنسان.

-١٢-

حتى لو توفر لك كلُ شيء، تبقى الحرية هي الهدف الأسمى.

فبرغم ما وجدت من راحة في سجني الجديد، ألا أن التفكير بالحرية عاد مجدداً ليطرق مخيلتي. وفي هذه الأثناء تسارعت وتيرة المحاكمات، وكنا فور عودة المعتقلين من المحاكمة نسألهم، بشرونا أفراج؟ أم خمسة عشر عاماً؟ كان اغلب المعتقلين يعودون وقد علت وجوههم ابتسامة، قائلين: أفراج. أما البعض فكانت أحكامهم واحدة، خمسة عشر عاماً، كون الأدلة غير متوفرة ضدهم لحكم أقسى، ما عدى مبايعة تنظيم داعش، وهذه البيعة تعتمد على الاعتراف فقط، ولا يهم القاضي كيف تم الاعتراف، وإذا قلت أن هذا الاعتراف تم تحت التعذيب، ساعتها يطالبك قاضي الجنايات بتقرير طبي، وهذا من العسير أثباته، لأن الخنق لا يترك

لك آثاراً يمكنها أن تخفف من هذه الأحكام، كان الأمر مخيفاً ومرعباً، كيف يُشرع قانون يؤدي بالإنسان إلى جحيم الخمسة عشر عاماً، بسبب أربعة كلمات (بايعت تنظيم الدولة الإسلامية).

أحلامُنا مثل سفينة، واهنة تحطمت مراراً على الشواطئ الصخرية، وفي كل مرة كان علينا بنائُها من جديد، هذا هو حال أهل العراق مُنذ وجدوا.

كانوا يودعونا مؤمنين بأن الحرية التي يحلم بها كل معتقل بريء ستتحقق يوماً ما، ولو بعد حين.

"الله يفرج عنكم" جملة يتبادلها المعتقلون مئات المرات يومياً، ويستخدمونها كذلك لتوديع بعضهم البعض.

كانت هناك دائماً ثغرات في قضايا المعتقلين، تخفف أحكام الغالبية، لأن الكثير من المعتقلين، وبسبب شراسة التعذيب يبدأون بالهذيان، ويقُرون انهم قتلوا وفجروا عشرات المرات، وفي يوم المحاكمة يعترف المعتقل بالحقيقة، ويقول انه لم يقتل ولم يفجر، ويأتي الشخص المفترض بأن بيته قد فجر ويثبت أن بيته لم يتعرض لسوء، أو انه على قيد الحياة ولم يقم هذا المعتقل بقتله.

كنت أشاهد المعتقلين المهددين بالحكم، يبثون الكثير من الإشاعات، خصوصاً عندما يقترب موعد محاكمتهم، محاولين أضفاء الأمل على أيامهم، عسى أن يخففوا من مرارتها، أراهم يربون الأمل مثل أطفالهم، يحرصون على أن لا يخطفهم أحد.

الغريب أن الإشاعة تتحول في غضون أيام إلى حقيقة مقدسة، يرفضون المساس بها.. وأحداها كانت العفو العام، هذه الإشاعة كنتُ قد سمعت عنها منذ يومي الأول في المعتقل، وأنه سيطبق في هذا الأسبوع أو الذي يليه، وحتى اليوم بعد خروجي ما زلتُ أسمعُ عنه.. أو أن الأمريكان سيأتون ويحررون السجناء المظلومين، وان جيشهم مستعد لذلك، لم أشاركهم هذا الحلم لأني لا أريد أن أكون أبله مرة ثانية كما حدث يوم سقوط صدام حسين.

* * * * *

ذات صباح، خرجت بعد أن نادوا بإسمي، فوجدت أمامي أمي مع شقيقتي أم عدنان، يقفنَ وقد بانت على وجوههنَ إشراقة أمل واضحة، وفور دخولي إلى القفص المواجه لهن، لأخذ مكاني المعتاد، راحت أمي وشقيقتي يتسابقن في الحديث، لم أكن افهم في البدء ما أردنَ قوله، لهذا طلبت منهم التروي، فرحنَ يخبرني بأن موعد المحكمة قريب جداً بعد أربعة أيام فقط، وسأكون حراً.

ورغم إنهم وعدوني سابقاً، ولأكثر من مرة بأن الأفراج عني قريب دون حدوث شيء، ألا أنهن الأن يؤكدن أن هذه المرة مختلفة عن سابقاتها، وأني أقضي أيامي الأخيرة في المعتقل. كان حماسهن اكثر مني لخروجي، حتى صرت أهدئهن، مذكراً إن هنالك احتمالية للتأجيل، وانا لا أريد لهم أن يصابوا بالإحباط مثل كل مرة، أو قد نصادف نقصاً في الأوراق، إلا إنهن تغاضين عن كل ما قلت، واصررن على أن الأفراج عني قريب جداً.

طيلة الفترات وأنا مسجون، كان يقيني بالأفراج وسيلة تصبرني على ألم السجن، لأني تجرأت منذ البداية، وقلت الحقيقة أمام القاضي، وهذا ما كفل لي فتح أبواب الحرية.

قضيتُ ليلتي الأخيرة في سجن الإرهاب سيء الصيت، حيث جاءت في الساعة التاسعة ليلاً، السيارة التابعة لسجن الاستخبارات، والتي صرنا نعرفها من صوتها، وبعد قليل من وقوفها ذاعت اسمي مع أسم شقيقي ليقتادونا إلى هناك.

فور دخولي تجمع الكثير من السجناء حولي، يريدون سماع الحكايات عن الدلال الذي كنا فيه، ولأن الحديث أخذنا تلك الليلة فقد مر الوقت سريعاً، وبعد أن نودي للنوم عاد السجناء إلى أماكنهم، بقيت ممدداً، نتبادل الحديث أنا ومراقب القاعة، إلى أن حل أول الصباح، رفعت الغطاء إلى ذقني، و نمت لساعة أو اثنتين حتى ايقظني المراقب، قائلاً:

- أنهض يا علي، انهم يذيعون اسمك.

قمت مسرعاً إلى الحمام، غسلت وجهي جيداً بالماء والصابون، ارتديت البدلة البرتقالية.. التي كنت أكرهها جداً، كونها تشعرني بانني مذنب. أخرجني الحارس إلى الباحة المواجهة للسجن، كبلوا أيدينا أنا وشقيقي، وكان معنا احمد، قريبي الذي كان السبب في ما نحن عليه من حال. وفور إتمام الإجراءات، أتجهنا إلى السيارة المنتظرة في الخارج، الباص الصغير الأبيض ذاته، أمامهُ يقف شرطيان و ضابط، وفور ركبونا نحنُ الثلاثة، تحركت السيارة متجهةٍ مباشرةٍ إلى المحكمة، وفي ظرف عشر دقائق كنا عند مدخل محكمة جنايات صلاح الدين.. انزلونا من السيارة، ليتم اقتيادنا لمسافة دقيقتين، ليضعونا بعدها في غرفة تحت المحكمة، مغلقين علينا بابها.

بقينا ننظر أحدنا إلى الأخر دون كلام. وبعد مرور حوالي نصف ساعة، فتح أحدهم الباب وأخرجنا. كان يتحرك بعجل، أزاح الأغلال من أيدينا بمساعدة شخص كان يقف في الخارج، ممسكين بها إلى الخلف، قال من فتح وثاقي، يجب عليك الركض، انطلقت اجري لمسافة عشرين متراً تقريباً، وصولاً إلى قاعة المحكمة.

قبل أن أدخل، رفعت رأسي لأرى الوجوه التي تقف عند باب القاعة، شعرت بالطمأنينة، انهم أحبائي خالد الذي اجتهد معي كثيراً، إلى جانبه

الأستاذة النبيلة أيمان الكاظم، وأوس، وايمن، وعدوني، تبادلت معهم ابتسامة الواثق للواثق.

ادخلني الحارس إلى قفص خشبي، يصل إلى أعلى بطني كان يتوسط قاعة المحكمة. وقفتُ ساكناً، قبالتي تماماً يجلسُ ثلاثة قضاة على كراسي سوداء فخمة، أمامهم منصة كبيرة من الخشب المصقول بنية اللون، وإلى جانبهم على بعد ثلاثة أمتار تقريباً يجلس المدعي العام.

كانت الابتسامة لا تفارق شفتاي، والألم يعصرني، مشاعر غريبة مثل زيتٍ وماء، ابتهاجي لاقتراب موعد الأفراج، ووجعي لأني اقف حيث يقف المتهمون في هذا المكان الموحش.

ذهب الحارس مسرعاً وعاد بشقيقي ليوقفه بجانبي، وأقفل علينا باب القفص الخشبي، في تلك الأثناء تطلعتُ إلى القضاة، كانوا منشغلين بتقليب بعض الأوراق، غير مبالين بوجودنا، وما هي ألا لحظات حتى رفع احدهم راسه.. كان رئيس القضاة الذي يتوسطهم، سألني عن اسمي، عملي، سكني.. أجبته، وفعل مع أخي ذات الشيء، ليفاجئني بسؤال لم أكن أتوقعه.

- نعم يا علي تكلم لنا، عن العمليات الإرهابية التي قمت بها؟

أفلتت ابتسامة من بين شفتي، حتى إنني ضحكت تقريباً، إلى اليوم أتساءل عن البلاهة التي رافقتني منذ دخولي هذه القاعة، وبعد أن استعدتُ رباطة جأشي أجبته جازماً: لم ارتكب أي مخالفة للقانون، أنا بشكل دائم ضد الإرهاب والإرهابيين.

- هل تقصد أنك لست مذنباً؟ قاطعني متسائلاً.

بالتأكيد، يا سيادة القاضي لست مذنباً، وأنا لا أعلم، على ماذا تم تبصيمي لأني ساعتها كنت معصوب العينين ومكبل اليدين. والدليل يا سيادة القاضي، إنني عندما ذهبت إلى قاضي البداءة، قلت لهُ الحقيقة، وكل شيء موثق أمامكم.

- حسناً، حسناً، قالها وهو يهز رأسه.

ثم تحول القاضي بحديثه إلى شقيقي، وكانت أجوبته مقاربة لما قلت. بعد ذلك طلب من الحرس مناداة "احمد إسماعيل" وخلال أقل من دقيقة كان أحمد بجانبنا.

توجه القاضي بالحديث إلى أحمد، طالباً منه الوقوف أمام عامود خشبي بجوار القفص، ينتهي بقطعة خشبية مربعة الشكل، فوقها وضع المصحف، وبعد وقوف القاضي وجميع من كانوا في القاعة، طُلب من أحمد أن يضع يده على القرآن، ويردد القسم "والله العظيم أقول الحقيقة" بعدها طلب منه القاضي رفع يده، ليجلس الجميع، ما عدى المتهمين، فسأله القاضي بطريقة استفزازية:

- تكلم يا أحمد، كيف قمت بالعمليات الإرهابية بمساعدة هؤلاء؟ وأشار بيده نحونا.

بصوت متهدج، راح أحمد يتكلم:

- يا سيادة القاضي: أن ذنبي الوحيد إنني اعمل في الليل والنهار، لإعالة عائلتي المكونة من خمسة أفراد، صباحاً في شركة للأدوية، ومساءً حارساً في معمل لإنتاج الثلج، وشاء حظي العاثر أن يحصل انفجار في الشارع المجاور للمعمل، وعلى أثر ذلك تم اعتقال العشرات ممن كانوا هناك، وأنا معهم طبعاً، ولأن من كانوا معي هم من أبناء مدينة سامراء، ولديهم علاقات طيبه بالضباط الذين هم أيضاً ينتمون إلى نفس المدينة تم الأفراج عنهم، أما أنا فكنت غريباً، لم اسكن هذه المدينة ألا منذ أعوام قليلة، ولم اجد من ينجدني، فقاموا بخنقي وضربي وترهيبي، وبعد مرور ما يقرب العشرة أيام من التحمل، كانت قدرتي على الاستمرار قد انتهت، فقلت لهم مستسلماً اكتبوا ما تشاؤون، وسأبصم عليه، فقط اتركوني بسلام. حينها ظننت أن ألمي قد انتهى، لكنهم استمروا بل زادوا في تعذيبي، يريدون أن أعطيهم أسماءً لأشخاص على انهم شركاء معي في الجريمة، في بداية الأمر رفضت ذلك، لأني لم أشأ توريط أناس أبرياء معي، فقاموا بتسجيل مجموعة أسماء، وأخذوا بصمة إبهامي وأنا معصوب العينين.

هنا قاطعه القاضي قائلاً:

- حسناً يا أحمد، أذا كان ما تقوله صحيح، لماذا عندما سالك قاضي البداءة، عن هذه الاتهامات لم تقل لهُ ما تقوله الآن؟

- هددوني. والله هددوني يا سيادة القاضي، وأن زوجتي وأمي ستكونان الثمن، فخفت أن يقوموا بتنفيذ تهديدهم، وكنت وما زلت أفضل أن أقضي ما تبقى من عمري في الحبس، على أن أرى أمي و زوجتي في ذلك الموقف.

- هل تعرف أسمائهم، أقصد الذين فعلوا بك هذا؟

- لا سيدي، لأنني طوال فترت التعذيب كنت معصوب العينين.

- احمد، قالها القاضي بصوتٍ حازم، الأن أريدك أن تجيب على سؤال محدد، و لا تنسى أنك تحت القسم، هؤلاء مشيراً بكفه المفتوحة تجاهنا. إرهابيون أم لا؟

- بالتأكيد لا، انهم ابعد ما يكونوا عن الإرهاب والتطرف.

وهو مستمر بالحديث، كانت عينا أحمد يتلألآن، بسبب الدمع المتجمع في مقلتيه، حتى تمكنت هذه الدموع من غسل كل الغيض، الذي احمله في قلبي لما سببه لي من الآلام.

طلب القاضي من الحراس إخراجنا جميعاً، فأوقفونا عند باب القاعة لدقائق قليلة، ثم نودي علينا أنا وشقيقي، فعدنا للوقوف داخل القفص الخشبي ذاته، فسألني القاضي قائلاً:

- علي، هل أنت بريء، أم مذنب؟

بالتأكيد بريء.

التفت إلى شقيقي بنفس السؤال، ورد عليه شقيقي بنفس الجواب، بعدها وجه القاضي كلامه إلى المدعي العام متسائلاً، أن كان لديه ما يقول، نهض المدعي العام وقال مخاطباً القاضي:

- يا سيادة القاضي، أن هؤلاء أبرياء.. وقد ثبت لنا بأن لا وجود لأي دليل إدانة ضدهم، لهذا اجد أن لا داعي لبقائهم رهن الاعتقال ليومٍ آخر، وأطالب بإطلاق سراحهم فوراً.

استغربتُ كلام المدعي العام، كوني تعودت من خلال الأفلام العربية التي قليلاً ما كنتُ أشاهدها، أن المدعي العام هو ضد المتهم بالعادة.

سألني القاضي عن مدة اعتقالي؟

فقلت له:

معتقل منذ عامين ونصف العام.

بدت على وجهه أمارات الأسف، وتساءل راسماً على وجهه إشراقة خفيفة.

- هل تغيرت أفكارك داخل المعتقل، هل أثروا عليك؟

أنا من اثر عليهم، يا سيادة القاضي لا العكس.

- جيد، جيد، الأهم أن تكون بخير. قالها القاضي وهو يبتسم.

التفت بعدها إلى القاضيان الجالسان على يمينه ويساره، واضعاً بعض الكلمات بأذن كل واحد منهم، ثم التفت ألينا وعدل جلسته، وبدأ يقرأ من ورقة كانت بين يديه، لم أعد أتذكر ما قال بالضبط، لأني في تلك اللحظة كنت افكر في ما بعد هذا المكان؟ إلى أين سأذهب؟ وكيف هي الحياة خارج هذه الجدران؟ أسئلة تتراكض وتصطخب في رأسي.. وبعد أن ذكر بعض المواد القانونية، أتذكر انه قال لعدم كفاية الأدلة: تقرر الأفراج عني وعن شقيقي، في تلك اللحظة سيطر علي شعور غريب كيف اسمع كلمه الأفراج ولا اشعر بالسعادة!

بعد إعلان القاضي براءتنا، نظرت إلى عينيه وقلت له شكراً، وغلفني صمتٌ رهيب، ونظرة تعاتب الكون بأكمله على تلك الأيام، وأنا أتنقل من معتقل إلى أخر، وكم الإهانات التي لحقت بي حتى سحقتني.

لم أودع زملائي ذلك اليوم، كونهم كانوا معاقبين ب"التعداد" وهي أن نجلس من الصباح حتى الليل ونحن في وضع القرفصاء.

الحرية لم تكن جميلة، كما تصورت، التفكير بالحرية أحساس أجمل من أن أعيشها حقيقة في هذا البلد.

انتظرنا السيارة التي ستقلنا إلى المنزل، ونحن نقف في مكان تقصدنا أن يكون بعيداً عن المعتقل، خوفاً من أن يتراجعوا ويعيدونا اليهم، كما فعلوا قبل أسبوع عندما تم الأفراج عنا، وكانت الحجة أننا قد نكون مطلوبين في أماكن أخرى، مما أستدعى مفاتحة جميع الدوائر الأمنية قبل أخلاء سبيلنا.

في باب المنزل حيث تم اعتقالنا، تجمع الأصدقاء والاحبة، استقبلونا بالدموع والفرح.. أسرعت بالدخول إلى المنزل لرؤية أبي، الذي لم أره منذ يوم اعتقالي، كان قد فقد القدرة على المشي بسبب الحزن على أولاده، ليرحل عنا بعد شهر واحد من اطلاق سراحنا، وكأنه أجل رحيله إلى حين عودتنا.

حدثته عن السجن الذي خبره جيداً، بسبب السنوات الطويلة التي قضاها في سجون الدكتاتور، بسبب نشاطه السياسي المعارض.

راح يردد بألم.. هذه "سجون ما بعد الدكتاتور".

أكتب هذه السطور، وقد مر عام على نيلي حريتي، غادرت السجن، لكن السجن يرفض حتى الأن مغادرتي.

السجن مكان لا تريد تذكره حتى وأنت بين جدرانه.

السجين يجب أن يعامل معاملة الأموات، وكلاهما لا يجوز التشفي بهم.

تزورني الكوابيس بين الحين والأخر.. اشعرُ أحياناً بأن احدهم يجلس على صدري يحاول خنقي.. فأبدأ بهز رأسي يميناً وشمالاً.

صرت افكرُ كل يوم بمن تركتهم خلفي في ذلك السجن الرهيب، و كيف هم الأن؟ كنت قبل ذلك لا اكترث لهم، بل أشكك بمظلوميتهم، علمني السجن أن من القسوة، أن تشكك في مظلومية المظلوم.

لا اعرف كيف تمكنت من تحمل عامين ونصف، وأنا الذي إذا قطعت الكهرباء ساعة أنزعج، وإذا غاب خط الأنترنيت يعتريني ألتوتر، لكني اكتشفت أن للإنسان قدرة عجيبة على التحمل، ينافس بها جميع مخلوقات الأرض.

هل حقاً كنتُ محتاجاً لكل هذا الوقت، وهذه التجربة لأرى الحقائق بصورتها الجلية؟

أتذكر جيداً عندما كنا صغاراً، وتمرُ طائرة مخترقة الغيوم، أقوم باحتضان رقبة صديقي، مؤشراً بأصبعي تجاه الطائرة، لمساعدته على رؤيتها وهو يردد "لا أراها" الح عليه أكثر ليقول:

- يا علي، لا استطيع أن أرى ما ترى.

وهذه هي الحقيقة.

تمت